قصص

لويجي كابوانا

Telegram:@mbooks90

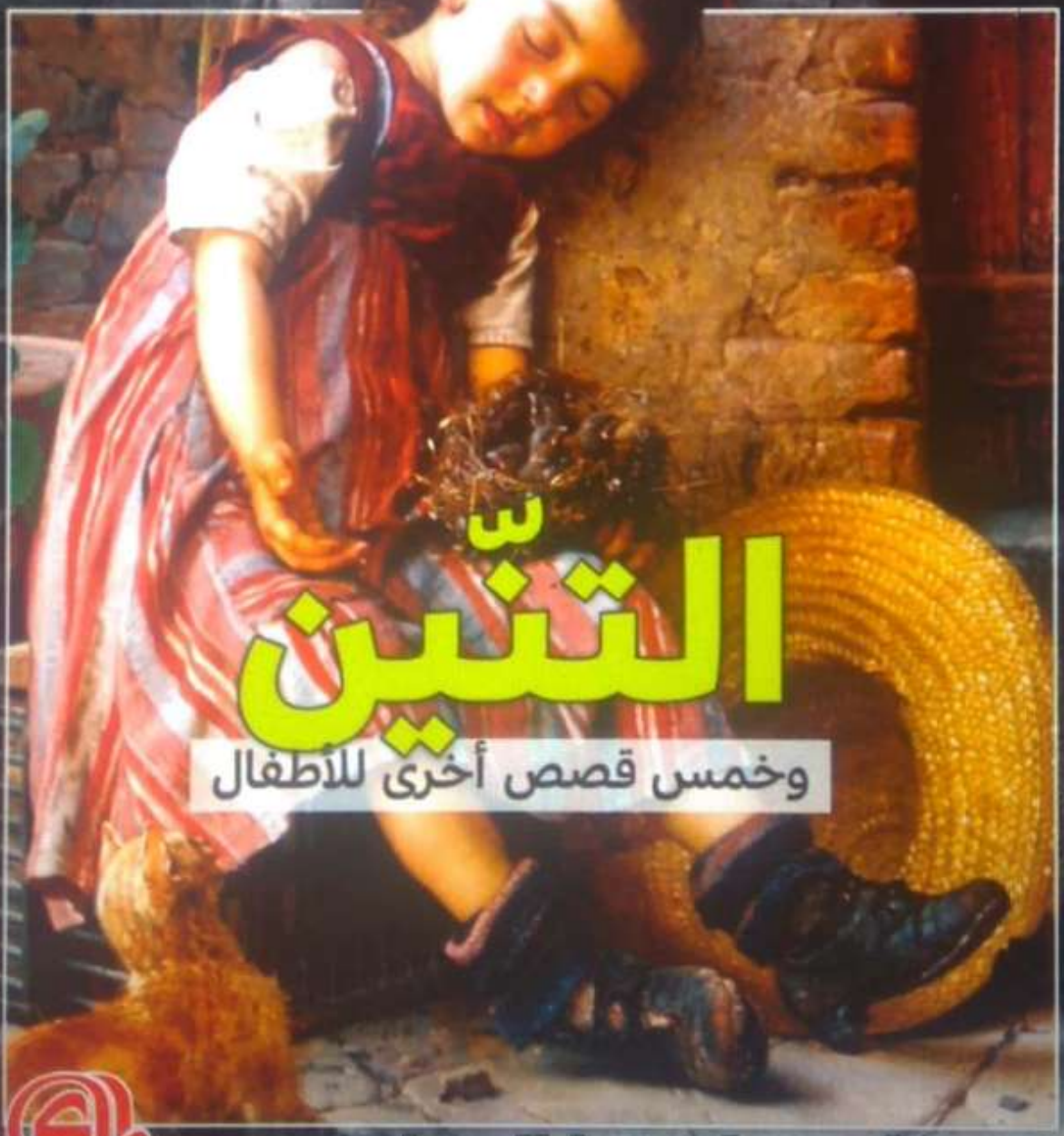

التنين

وخمس قصص أخرى للأطفال

ترجمة: نبيل رضا المهايني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Luigi Capuana

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غلاف الكتاب الأصلي

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدّمة المترجم

لويجي كابوانا (1839-1915) Luigi Capuana كاتب، وناقد أدبي، وصحافي، من أهمّ أدباء الواقعيّة الحقيقيّة في إيطاليا. ولد من عائلة مُلّاك ميسورين في إحدى ضواحي كاتانيا، ثاني أكبر مدينة في جزيرة صِقِلّية. درس في المدارس الرسميّة ثمّ تابع دراسته في معهد برونتي الملكي قرب بلدته، لكنّه ترك دراسته في المعهد لأسباب صحيّة، وتابعها بمفرده إلى أن حصل على الثانوية، فدخل في كلية الحقوق، ثم تركها ليلتحق بحملة غاريبالدي العسكريّة. أقام أيضاً في مدينة فلورنسا، واحتكّ فيها بكبار الأدباء والمفكّرين وأسهم في حركتها الأدبيّة. وعندما عاد إلى بلدته في صِقِلّية ومات أبوه، اضطر للعمل في مدارس البلدة إلى أن تمّ انتخابه عمدةً لها. وفي عام 1902 انتقل إلى كاتانيا ليدرِّس في جامعتها ثمّ مات فيها عام 1915.

يبدو أنّ الكاتب تزوّج في شبابه بطريقة غير قانونيّة من خادمة كانت تعمل في بيت العائلة، وأنجب منها عدّة أولاد تمّ إيداعهم كلّهم في ملجأ اللقطاء، لأنّه كان من المستحيل وقتها الاعتراف بأولاد أنجبتهم أمٌّ خادمة.

أهمّ أعماله الروائيّة كانت تلك التي استلهمها الكاتب من الحياة في جزيرة صِقِلّية، ومن شخصيّات وأحداث منطقته، والتي عبّر عنها بأسلوب هزلي كوميدي على الرغم من مآسيها. وهناك أيضاً الحكايات والخرافات التي كتبها كابوانا والتي تضمّ أهازيج وأناشيد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقصائد شعبيّة من أجمل ما كتب المؤلّف.

استعمل كابوانا في عمله الأدبيّ طريقة أساسيّة تعتمد على تصوير الواقع تصويراً مباشراً واستقاء أحداث الرواية من الوقائع الحيّة. كما كان الكاتب يحرص على ألّا يستعمل أحداث الواقع ليعبّر عن شخصيّته خلال روايته لها. أمّا عن الأسلوب فكان لا بدّ من الابتعاد عن البلاغة والخطابة واستعمال النثر اللين والحيّ.

والحقيقة أنّ أعمالاً أدبيّة كثيرة ظهرت في تلك الفترة لتصف الواقع في كثير من مناطق الجنوب الإيطالي، وخاصةً في صِقِلّية ونابولي وسردينيا. وكان كابوانا من بين أهمّ كبار مؤلّفي هذه الأعمال على غرار جوفانّي فيرغا وغراتسيا ديليدّا. لكنّ كابوانا كان من أوائل الكتّاب الإيطاليّين الذين أوجدوا نظريّات الواقعيّة الحقيقيّة وذلك عندما قال بـ «شِعر الحقيقة».

لا بدّ من الإشارة على أيّة حال بأنّ الواقعيّة الحقيقيّة كانت تيّاراً أدبيّاً نشأ بين عامي 1875 و1895 على يد مجموعة من الكتّاب لم يشكّلوا مدرسة فعليّة، بل كانوا يتّبعون مبادئ محدّدة. وقد نشأ التيّار تحت تأثير جوّ الإيجابيّة التي دعت إلى الثقة المطلقة بالعلم والأسلوب التجريبيّ وبوسائل البحث الناجعة. كما استلهم التيّار الحركةَ الطبيعيّة التي انتشرت في الأوساط الأدبيّة الفرنسيّة حتّى نهاية القرن الثامن عشر. وكان كتّاب هذه الحركة يدعون إلى تصوير الواقع الاجتماعي تصويراً موضوعيّاً وتمثيل كلّ طبقاته، بما فيها الطبقة الدنيا، بكلّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملامحها، المحبّبة منها والمقزّزة. كما دعا هؤلاء الكتّاب المؤلّفين ليكونوا كالعلماء في تحليلهم لجوانب الحياة الملموسة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التنّين

-أوه! التنّين!

كانت الطفلتان تلعبان قربَ السُّورِ المنخفضِ، على الجسرِ الصغير. هناك وضعَتْهُما العمّة، لتستجديا صَدَقاتِ المارّة. سارعت الطفلتان للجلوس، عندما شاهدتا الرَّجل العجوزَ قادماً على صَهوة حِماره، فاعتلَتْ الكبيرةُ السُّورَ، بينما قعدت الصغرى على الأرض، وهما تهمسان مرِدّدَتَين معاً:

-أوه! التنّين! التنّين!

دون باولو دراغو(1)، التنّين، اسمٌ على مُسمّى، كما كان الجميع يقولون. ما إنْ اقتربَ منهما، حتّى سحب بحركةٍ خفيفةٍ رَسَنَ الحمار ليَلجمَه. ثمّ أنّبهما قائلاً:

-ماذا تفعلان هنا؟ ارجعا إلى البيت، وقولا لتلك العمّة الشمطاء: إنّ دون باولو لا يريد أنْ نقومَ باستجداء الصَّدَقات! ارجِعا إلى البيت.

عندما رأى أنّ الطفلتين لم تتحرّكا، أطلقَ نوعاً من النخير أخافَهُما.

وفي الواقع فقد تظاهرتا، صباح ذلك اليوم، أنّهما تغادران بصمتٍ وسكون، لكنّهما توقّفتا عند منحنى الطريق، ريثما يبتعد دون باولو، ثمّ عادتا، قفزاً ووثباً، إلى مكانهما السابق. الكبرى على السور، والصغرى على الأرض. الأولى شعرها أشعث، حافية، رثّة اللباس. والثانية حافية أيضاً، لكنّ شعرها ممشّط نوعاً ما، كما أنّها لفّت حول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رأسها منديلاً من القطن الأزرق المزركَش بكريّات بيضاء.

كان التنّين، كما كانوا يسمّونه عادة، يسكن مقابل بيتهما. في المساء، عِنْدَ عودته من البستان، وجدهُما أمام باب البيت، فسأل الكبيرة منهما بلهجته الفظّة المعتادة:

-أين عمّتك، تلك الساحرة الشمطاء؟

-إنّها خارج البيت.

-هل قلتِ لها إنّ دون باولو لا يريد أن نستجدي الصدقات؟

- كلّا.

-سأخبرها أنا إذن.

وانتظر على النافذة عودة العجوز.

عندما وصلت بدت قبيحةَ المنظر، وكانت قَذِرَة الثياب، تحمل على ذراعها سلّة فارغة، وتغمغم وهي تجرُّ رِجلها العرجاء. صاح عليها دون باولو، من الأعلى:

-وكيف؟ هل ترسلين يتيمَتَيْكِ لاستجداء الصدقة؟ ألا تخجلين أيّتها الساحرة الشمطاء؟

-إذن، فعليك أن تطعمهما أنت بنفسك - أجابت العجوز. أنت يا من لا تعطي ولا قشرةَ فولٍ لبائسٍ فقير!

-أنا لست قريبك، ولست ملزماً بك! لو كانتا صبيَّين على أقلِّ تقدير!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- اذهبْ إذن إلى الجحيم، أنتَ وكلّ ما تملك!

أشارت الشمطاء إلى الطفلَتَين، وأمرتْهما بالدخول إلى البيت، ثمّ أدارت ظهرها له، ووَلَجَتْ عَبر الباب.

***

بعد يومين تكرّر المشهد.

-أوه! التنّين!

كانت الطفلتان قد جلستا القُرفصاء، الواحدة إلى جانب الأخرى، لكنّ الكبيرة مدّتْ هذه المرّة يدَها إليه، بخجلٍ، وكأنّما لتَسْخَرَ مِنه.

أوقفَ العجوز حمارَه وقالَ للطفلة:

-تعالي، خذي، وارجعا حالاً إلى البيت. لديكما اليوم طعام.

مدّ يدَهُ بنصف رغيف من الأرغفة الكبيرة المخبوزة في البيت، والتي يسمّونها في صِقِلّية غواستيدّي (2).

فَنْجلَت (3) الطّفلة عينَيها من شدّة الدَّهشة ولم تشكُرْه.

-أمّا إذا وجدتكُما في هذا المكان غداً، ومن جديد!... (هدَّدهما التنّين).

لكن ماذا بوسع الطفلتين أن تفعلا؟ فهذا ما تريده العمّة. نظرت الواحدة في عينَي الأخرى وتشاورَتَا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-اذهبا، حالاً، اذهبا! قال العجوز متذمّراً.

ذهبت الطفلتان هذه المرّة بالفعل، وأخذتا معهما نصف الرغيف الكبير، إلى العمّة دون أن تمسّاه.

-هذا أمرٌ لا يصدّق - التنّين يعطي صدقة! فهل اقترب أجَلُه؟ هكذا فسّرت العمّةُ العجوز الأمرَ، لكنّها في الغداة أجبرت الطفلتين على العودة إلى المكان المعهود، لاستجداء المعروف.

-عليهما أن تكسبا العيش بهذه الطريقة، إلى أن تتمكّنا من كسبه بالعمل.

ما إنْ رآهما دون باولو حتّى انقلبَ تنّيناً بالفعل.

-هنا من جديد؟ هيّا، إلى البيت حالاً!

وبما أنّ الطفلتَين تردّدتا، فقد تابع:

-إلى البيت! سأرافقكما أنا إلى مكان الساحرة!

ساق الطفلتين أمامه، هما سيراً على الأقدام، وهو على متن الحمار، مقطّب الجبين، يلوك في سرّه قبيح الكلام بحقّ الساحرة الشمطاء.

أمّا الساحرة الشمطاء، فكانت في تلك الآونة ترفو الجوارب، وهي جالسة على عتبة بابها. ما إنْ لَمَحَتْهُ قادماً من آخر الطريق، حتّى استشاطت غضباً، وانتصبتْ واقفةً، ثمّ بدأت بالصُّراخ، من غير أنْ تنتظرَ ما سيقوله لها:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-اشتغلْ بشؤونك أيّها التنّين الشرّير! ماذا يهمّك من أمْرِنا؟ هل هما ابنتاك؟

لكنّ دون باولو كان أيضاً صاحبَ لسانٍ سليط، لذلك فإنّه بدأ، مِن غير أنْ يترجّل، بإلقاءِ الشتائم وكيلِ الإهانات على تلك العجوزِ عديمةِ الضمير، التي تُرسِل طفلتين بريئتين إلى المجهول، وعالم الضياع، في مناطق خارج البلدة، لتستجديا الصَّدَقَة، وكأنّه لا أقْرباء لهما.

تَجْهَرَ حولَهم عددٌ مِن النسوة ومِن العمّال، وكانوا جميعاً يضحكون من المشهد، مع أنّهم كانوا يعطونه الحقّ.

على الرغم من ذلك، فإنّ الساحرةَ الشمطاء لَمْ تسكتْ أبداً، بل واصلت شَتْمَ دون باولو بشتائمَ مِن كلّ الألوان، ثمّ إنّها اقتربتْ منه في نهايةِ الأمر، مشرّعةً الذِراعين، مفتوحةَ الكفّين، وصرختْ في وجهِه ملءَ شدقَيها:

-هل يحترقُ كبدكَ عليهما، لمجرّدِ أنّهما تستجديان الصَّدَقَات؟ إذن، لماذا لا تَكْفَلُهُما! خُذْهما لِعندكَ! فأنا أعيشُ عيشةَ ضَنْكٍ وبؤس، ولا أعرف كيف أتدبّر أمري، بل إنّي لا أتحمّل إلّا بصعوبةٍ إيواءَهما في بيتي، حيث تنامان طيلةَ اللَّيل.

عندها شاهد الجميع كيف أنّ المعجزةَ بدأتْ تتحقّق. هذا على ما حَكَي عنه الجميع، فيما بعد. فلقد ترجّلَ دون باولو عن مَرْكَبَته، وكأنّما ليهجَمَ ويَقْلَعَ عينَيِ العجوز، لكنَّه توجَّهَ نحو الطِّفْلَتَين، والتَقَطَهُما مِن ذراعيهِما، ثمّ سحبَ مِفتاحَ الباب مِن جَيْبِه، ودَفَعَهُما إلى الداخل،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون أنْ ينبسَ ببنت شفة. التفتَ بعدها نحو العجوز، التي وقفتْ حيرى مشدوهة تراقب المَشهد، وتمتمَ قائلاً، وقد اختنقَ صوتُه مِن شدّة السُّخْط:

-أيّتها الساحرة الشمطاء، أجل، إنّي سآخذهما!

- كانت معجزة بالفعل.

***

كان التنّين يعيش منذ سنين وسنين داخل ذلك الجُّحر. كان يقومِ بنفسه بكلّ أعمال البيت. لديه غرفتان في الطابق الأرضي، فضلاً عن أربعٍ أخرى في الطابق الأوّل، وكان هذا أكثر ممّا يحتاجه شخصٌ وحيد. لكنّ الطابق الأرضي كان يُستَعمَل إسطبلاً ومَتْبَناً ومستودعَ قَمحٍ وقبواً وخزانة ومَخزناً لكلّ شيء. علماً أنّ الغرف الأخرى في الطابق العِلويّ لم تكنِ أقلَّ ازدحاماً بالأشياء المغبرّة المغطّاة بخيوط العناكب. كان فيها فُرُشٌ ملفوفةٌ، وأغطيةٌ مكدَّسةٌ على الطاولات، فضلاً عنِ ألواحِ سُرُرٍ مسنودةٍ إلى الجدران، ومَساند منِ حديد عليها أشياءُ لا يُعرَفُ لَونُها ولا شكلُها. وهناك أيضاً لوحاتٌ سَوَّدَها الزمان، ولوحاتٌ أخرى مطبوعة بمختلف الأحجام، سوداءُ وملوّنةٌ، تُصوِّرُ قدّيسين لا يمكن أن يُعرَفَ لهم اسمٌ، بسبب كثافةِ الدُّخان الذي غطّى كلّ شيء، وكانوا يملؤون الجدران بين رفوف مزدحمة بالزجاجات والقوارير الصغيرة والكبيرة، وكذلك أواني القهوة وأكوابها، وأدوات البَشْر، أيْ بما هَبَّ ودَبَّ من مختلف الأدوات، التي أصبحَتْ لا نفعَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لها، بسبب الصَّدأ الذي يعلوها، على الرغم من أنّها بَقِيَتْ في المكان نفسِه منذ ماتت زوجته وابنتاه، وقد مات ثلاثتُهم خلالَ أقلّ من ثلاثة أشهر.

بين كلّ الغرف، كانت غرفةُ النوم والمطبخ وحدَهما، منظَّمَتَيْن بعض الشيء. وكان هو يعيش كأنّه مَنْفِيٌّ فيهما، وكأنّ الغُرَفَ الأُخرى لم تكن له، كما أنّه لم يكن يسمح لأيٍّ كان أن يدخل إليهما. ثمّ إنّه لم يكن يغادر البيت، إلّا نادراً، أي حين يذهب إلى بستانه، أو إلى القدّاس صباح الأحد.

المخلوقات الوحيدة التي كانت تعيش معه في ذلك الجُحر، كانت الحمارَ والقِطَّ فقط. كان الحمارُ عَجوزاً أيضاً، أجْرَدَ بلا وَبر، أذناه مرتخيتان، وعيناه ضبابيّتان. أمّا القِطّ فكان نحيفاً وأجردَ أيضاً بسبب الهَرَم. عندما لا يتجوّل ببطء عَبْر الغرف وهو يموءُ بصوت واهن ضعيف، كان يُخرخِر فوق الكرسيّ، أو على أكوام الفرش أو الأغطية.

عاش دون باولو هذه الحياة القاسية لأكثر من ثلاثين عاماً، وكان طبعُه يزداد حدّة ووقاحة، أي أنّه أصبح تنّيناً بكلّ معنى الكلمة، ذلك كما كان يؤكّد جيرانه. لقد أصبح كومةً من التّجاعيد، ذقنُه بيضاءُ وشعرُه أبيضُ، كادَ ظهرُه يتقوّس، على الرغم من أنّه ما زال رشيقاً خفيف الحركة، أكثر ممّا يبدو عند النظر إليه. وإذا قابل شخصاً من عمره وأوقفَه ليسألَه:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-ماذا تعملُ يا دون باولو؟

-أنتظرُ الموت، كان يجيب - وماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك؟

كان هذا صحيحاً. لقد كان ينتظر الموت، بعد أن رأى بيته يتخلّى عن كلّ ساكنيه، في غضون ثلاثة أشهر فقط: فلقد حَصَدَ التيفوئيدُ زوجتَه وابنتَيه، ولم يترك له عزاءً على تلك المصيبة. انقلب عدوّاً للبشر، أصبح تنّيناً، ولم يعد يرغب برؤية مخلوق، وكأنّ الناس هم من قتل زوجته وابنتَيه. لفّ الفُرش وطوى الأغطية وفكّ أسرّة حبيباته، ووضع كلّ شيء هناك بلا أدنى ترتيب، ولم يلمس شيئاً منذ سنين وسنين طويلة، لم يراقب الفرش، وفيما إذا كانت الجرذان والعثّ والغبار والعناكب قد أتتْ عليها.

ومَنْ يمكِن له أنْ يستعملَها بعد الآن؟ فهو لَمْ يكنْ لهُ أقرباءُ قريبون أو بعيدون، ولا حتّى من طرف زوجته. وهكذا فإنّه كان ينتظر الموت. وفي المساء كان يسبّح، قبل أن يذهب إلى سريره، ويصلّي على أرواح الذين تركوه وحيداً وحيداً، ويتوسّل إليهم لكي يأتوا لأخذه إليهم. لكنّهم لم يأتوا البتّة، وكأنّهم نَسُوهُ.

في ذلك العام، كانت تتطوّر بالتدريج في مخيّلته قناعةٌ راسخة بأنّ حياته الأليمة ستنتهي في الخريف.

حسِبَ أنّ دلالات الأمر كانت واضحة، وفق رأيه: ألا يشعر بالشفقة الآن، وعلى غير عادته، عندما يشاهد ملامح البؤس على الآخرين! وكأنّ هذا يثير فيه الغضب والخجل معاً. لكن هل أبدى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآخرون شفقةً ورأفةً عليه؟

لا، بل كانوا يدعونه التنّين، عليه إذن أن يكون تنّيناً حتى الرمق الأخير!

حدث أن أطلّ من نافذته ليدخّن غليونه القديم، المصنوع من الفخّار، فرأى يتيمتَيْ الساحرة الشمطاء، وقد وصلتا منذ قليل لتعيشا مقابل بيته، رقّ قلبه وقتها بسبب ذكرياتٍ ظنّ أنّها امّحت من ذاكرته منذ وقت طويل.

فهل كان هذا وهماً من أوهام خياله، أم كان واقعاً؟ بدا له أنّ اليتيمتين اللتين آوتهما العمّة الساحرة الشمطاء - ولم يكن له أن يدعوها بغير هذا اللقب- تشبهان حقّ الشبه ابنتيه، عندما كانتا طفلتين بالعمر نفسه. حسناً، وماذا عليه من هذا كلّه؟ هذا لا يعني أنّهما ابنتاه. فتانك قد ماتتا، بل وأكلتهما ديدان مقبرة كنيسة الكابّوتشيني. فماذا عليه من هاتين الآن؟

ومع هذا، فقد كان يراقب الطفلتين، كلّما وقف ليدخّن غليونه على النافذة، ذلك دون أن يوجّه حرفاً من كلمة لجيرانه، الذين لا يوجّهون إليه بدورهم كلمةً، لأنّهم يعلمون علم اليقين أنّه لا يجيب أحداً. كان يراقب الطفلتين وهما تلعبان أمام باب البيت، كان يحضنهما بنظراته، وهو يتمتم همساً كلّما رأى أنّ تلك الشمطاء تقسو عليهما في المعاملة:

-ولكن ماذا يهمني من شأن هاتين الفتاتين؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان يكرّر العبارة، ليتغلّب على شعوره بالشفقة والرثاء، الذي كان يغزو قلبه على الرغم من انزعاجه الكبير من الأمر.

ثمّ إنّه لم يشاهدهما لعدّة أيّام. أين ذهبتا؟ ماذا فعلت بهما تلك الشمطاء الشرّيرة؟ أصابه الأرق وشعر بالاضطراب طيلة نهاره، وكان يتردّد على النافذة، ويطلّ، وقد تنكّد بسبب غيابهما. شعر أنّ شيئاً ما ينقصه. كان يجد على الأقلّ ما يعزّيه عندما يدخّن الغليون على النافذة!

Telegram:@mbooks90

في طريقه إلى البستان ذلك الصباح، عندما راهما تطلبان الصدقات، وهما جالستان على السور الصغير فوق الجسر، خارج البلدة، شعر بخليط غريب من المشاعر يغزو قلبه الذي زادته المصائب والوحدة، قسوة على قسوته. لكنّه اكتفى في المرّة الأولى بإلقاء نظرة شزر وغضب، ثمّ تجاوزهما إلى طريقه. أمّا بعدها بيومين، فلم يتمكّن من لجم نفسه، وكان عليه أن يبذل جهداً عظيماً ليمتنع عن تلبيس عمّتهما الشتائم، ونعتها بالعجوز الشمطاء، عندما وجدها، في المساء لَدَى عودته من البستان، جالسة على عتبة بيتها، بينما كانت الطفلتان ممدّدتين على الأرض حولها كالحيوانات.

لم ينم تلك الليلة نوماً مريحاً، لأنّه كان يفكّر بالمسكينتين، وهو يشتم الساحرة التي كانت ترسلهما لاستجداء الصدقة، والتكسّب بإذلالهما، دون أن تتعب نفسها، هي، الساحرة!

ذهب في الصباح ليسرج الحمار، لكنّه واصل التفكير بالتعيستين،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليتيمتين دون أب ولا أم. لا بدّ أن يجدهما من جديد على سور الجسر، على الرغم من أنّه تنازع من أجلهما مع الساحرة، وقد أحضر نصف الرغيف لهما على أن يرجعا إلى البيت، على الرغم من أنّه بقي يكرّر، بين الفينة والأخرى، قائلاً في نفسه:

-وما يهمّني أنا من أمرهما؟ إنّهما ليستا ابنتيّ! إنّ ابنتيّ هناك، أكلتهما الديدان في مقبرة الكابّوتشيني!

على حين غرّة شعر أنّ شيئاً ما، صلباً قاسياً، قد ذاب ثمّ سال داخل قلبه، لم يتمكن يومها من المقاومة، فدفعهما إلى داخل البيت، وصفع الباب في وجه الساحرة الشمطاء وكلِّ الجيران.

***

لم تعرف الطفلتان تلمّسَ طريقهما في ظلام الممرّ، ولا إلى أين تذهبان.

-اصعدا إلى فوق، سأصل في الحال! - قال لهما، وقد رقّق، على حين غرّة، صوته وليّنه.

لكنّه غضب من حماره، لأنّه لم يتمكّن من الدخول إلى الإسطبل المجاور، لأنّ الخرج المترَع بالقمح كان يعيق دخوله. ثمّ اشتدّ غضبه ثانية، لأنّه لم ينتبه إلى هذه العقبة.

بعد أن صعدت الطفلتان درجتين من السلّم، توقّفتا بانتظار وصوله. كانتا خائفتين ترتجفان ممّا حدث، وتشعران بشيء من الرهبة، لأنّهما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحيدتان في بيت التنّين الغريب.

-هيّا، هيّا - دمدم متذمّراً بعد أن رآهما في مكانهما. ستبقيان معي دائماً. ولن تراكما تلك الساحرة الشمطاء، ولا حتّى عن بعد.

تناول يديهما، واحدة من هنا والثانية من هناك، وساقَهما عبر الغرف، وهو يشير برأسه إلى الأغراض المكدَّسة:

-تلك هي الأسرّة، سنجلّسها الآن. ستنامان هنا. هذا هو المطبخ. ذلك هو الفرن. سأعلّمكما كيف تعجنان وتخبزان الخبز. أنتِ ستنخلين الدقيق، أضاف متوجّهاً بالحديث نحو الكبيرة.

لم تجب الطفلتان، وقد دهشتا ممّا تريانه وتسمعانه، أشدّ من دهشتهما ممّا جرى قبل قليل بين العمّة والتنّين، لكنّهما وقفتا نجولتين ومستسلمتين، وكأنّما احتراماً وتقديراً لمن يرعاهما بعد أن فقدتا الأب والأم، أي للعمّة في البداية، وللتنّين الآن الذي انتزعهما من يد العمّة.

-ما اسمك؟

-بينا.

-وأنتِ؟

-كارميلا.

لا، أنتِ سأدعوك ليزا من الآن فصاعداً، وأنتِ جوفانّا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان هذان اسمي ابنتيه. عندما لفظهما. كان صوت التنيّن يرتجف.

***

تغيّر البيت بعد يومين، حتّى كاد من الصعب التعرّف عليه. تمّ في إحدى الغرف نصب سريرين، الواحد قرب الآخر. نصبهما التنيّن بمساعدة الطفلتين، اللتين استمتعتا بمساعدته على قدر استطاعتهما. نفض دون باولو الفُرُش، ونقلها لتتعرّض إلى أشعّة الشمس، ثمّ رتّب الأسرّة بعد أن سحب من الصناديق شراشف اصفرّت بمرور الوقت. كان على الطفلتين أن تتلاءما لتتمكّنا من النوم بملابسهما، على فُرُش ممدودة على الكراسي، أي على سرير مُرتجَل، لكنّه أفضل على أيّ حال من الجُحر حيث كانت الساحرة الشمطاء تؤويهما.

تغيّر دون باولو أيضاً، فبدا كأنّه شخص آخر. لقد غمره سرور لم يكن ينتظره، فظهرت الابتسامة في عينيه، وصار وجهه وضّاحاً. كان يذهب ويعود وينظّم وينظّف ويكنّس، وهو يردّد:

-ليزا، افعلي هذا، جوفانا، افعلي ذاك، تماماً مثلما كان يفعل قبل سنوات، عندما كانت ابنتاه على قيد الحياة، حين كان يريد أن يراهما نشيطتين، مشغولتين، وغير مكبّلتي اليدين، لتكونا سيّدَتَي بيتٍ ناجحتين. أمّا زوجته فكان لا يفكّر فيها إلّا قليلاً، كان يتذكّر أنّها كانت مريضة، لا تستطيع أن تبتعد عن أريكتها حيث كانت تقضي جلّ أيّامها، وهي تسعل وتشتكي من مئات الأمراض التي أصابتها، وكان يبدو له أنّها ستستريح إذا انتقلت إلى العالم الآخر، حيث لا سعال ولا غيره من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمراض.

كان يكتفي بأوهامه التي يتخيّل فيها أنّ ابنتيه ستقومان حيّتَيْن، ولهذا كان يناديهما في كلّ لحظة:

-ليزا، جوفانّا. هل أنتما جائعتان؟ الخبز هناك... عندنا جبنٌ أيضاً.

لم تكن الطفلتان قادرتَين على فعل ذلك بمبادرة منهما، فكان عندئذ يسحب دُرج الخوان، ويأخذ قطعة الخبز، فيقطعها في شريحتين كبيرتين، ثمّ يقطع شريحتين من الجبن، ويقدّمهما لهما بروح أمومةٍ ظاهرة، ثمّ يبتسم، وهو يشاهدُهُما تأكلان بشهيّةٍ واضحة.

-فلأتناول لقمةً أنا أيضاً.

فيأكل بصحبتهما. ويشعر بفتوّة الشباب تنبعث فيه.

***

لا بدّ من تأمين الملابس والجوارب لهما، لم يكن يستطيع أن يراهما أمامه بتلك الملابس الرثّة والأقدام الحافية. لهذا فقد توجه نحو الخزائن، يسحب أدراجها المصنوعة من خشب الجوز، ويتناول منها الملابس وبيَاضات الأسرّة، والأحذية، التي بقيت مدفونة هناك منذ سنين. كان كلّ ثوب، بل كلّ قطعة، تثير في قلبه ذكريات حلوة، وتملؤه بحنانٍ جديد، وكأنّما عادت ابنتاه من العالم الآخر، لترتديا كلّ هذه الثياب، التي بقيت تنتظرهما في مكانها. بل إنّه شعر أنّ مجرّد تعريضها للشمس والهواء، هو علامة سرور وفرح، كما يحدث حين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قدوم العيد.

كان قد مدّ حبلاً من طرف الشرفة إلى طرفها الآخر، فقامت الطفلتان بمساعدته في نشر الغسيل، وهما بين جيئة وذهاب. اعترتْهما الدهشة من كثرة الأقمشة، وكثرة القمصان والتنانير التي سيستعملانها من الآن فصاعداً، ذلك كما كان التنّين يكرّر على مسامعهما. كانتا سعيدَتَين بتقليبها وبلمسها وبتجريبها وارتدائها، ثمّ بامتلاكها على تلك الطريقة. في غياب التنّين، كانت إحداهما تبدأ بمنازعة الأخرى، على ملكيّة القِطَع، وفق تفضيلها للَونها أو غير ذلك.

لكن كان عليهما أنْ تبقيا مسجونتَين في البيت معه. لم يكن يريد أن تطلّا من النافذة، خوفاً من مشاهدة العمّة الساحرة، وكي لا تراهما هي أيضاً. كان لا يطلّ من النافذة إلّا هو، ليدخّن الغليون كعادته، من غير أن ينظر نحو الطريق، ومن غير أن يجيب على أسئلة جاراته: «ماذا تفعل الطفلتان؟». وكان لا يتحرّك عندما كانت العجوز تجيب بدلاً منه:

-ألا تعرفون أنّ التنّين قد التهمَهُما؟

أو عندما كانت تلك الساحرة الشمطاء تستأنف بصوت مرتفع:

-لكنّي أستطيع، عندما أريد، أن أضطرّه إلى أن يتقيّأهما وأن يعيدهما كاملتين!

تمكّن مرّتين من لَجْم نفسه، لكنّه انتفض في الثالثة، حتّى سقط

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الغليون من فمه:

-عليك أن تخجلي من التحدّث عنهما أيّتها الساحرة الشمطاء!

-حسناً، سنرى من سينتصر في نهاية الأمر، الساحرة أم التنّين.

أغلقت بالمفتاح باب بيتها، وألقت على كتفَيها الشَّال المصنوع من قماش أسود، ثمّ سارت تَعْرُج، وهي تهدّد برأسها وبيدَيها.

-أين بوسعها أنْ تذهب؟ وماذا بوسعها أن تفعل ضدَّه؟

عرف الجواب صباح اليوم التالي، عندما وصل حاجبٌ من عند القاضي، وكان هو منهمكاً في تقديم تعليماته للخيَّاطة، كي تُدَبِّرَ أمر ثياب الطفلتين وقمصانهما.

-وماذا يريد منّي السيّد القاضي؟

-أظنّ أنّه يريد محادثتك بشأن اليتيمَتَين، لأنّ الوصيّة عليهما طالبتْ بهما.

-الوصيّة عليهما؟

-أجلْ، عمّتُهما.

بدا له أمراً جَلَلاً أن تكون تلك الشمطاء وصيّةً عليهما.

-إنّها قريبتُهما الوحيدة - أضاف الحاجب -.

-لكنّي آويتُهما لأفعل خيراً، بعد أن رأيت أنّ تلك ترسلُهما لاستجداء الصَّدَقات!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-أعرف ذلك، تعالَ في التاسعة من صباح الغد، وقُلْ هذا للسيّد القاضي. فأنا حاجبٌ مسكين أنفّذ الأوامر.

غضب دون باولو، حتّى إنّه تخاصم بعد قليل مع الخيّاطة، لأنّها لم تتمكّن من تدبير طريقة تستخلص فيها من ثوبٍ كبير ثوبَين كيفما اتّفق للطفلتين. قالت إنَّ القماش لا يكفي لتنّورتين وقميصَين، كما أنّها بحاجة لقماشٍ جديد للبطانة، وغير ذلك: والكُلفة اثنا عشر تاري على أقلّ تقدير(4).

-عودي إذن في الغد - قال لها مُحتدّاً، لكي ينهي الحديث - إذا كنتِ غير قادرة، فسألجأ إلى خيّاطة أخرى.

عندما رأى أنّ الطفلتين قد جلستا القُرفصاء في إحدى الزوايا، خائفتين من كلام الحاجب الذي سمعتاه، بدأ بمداعبَتِهما واستِلطافِهما.

Telegram:@mbooks90

-أين تريدان أن تسكنا، هنا أم لدى الساحرة؟

لم تتمكّن الطفلتان من إيجاد جواب.

-أين تريدان أن تسكنا، هنا أم لدى الساحرة؟

كرّر السؤال بنبرةٍ غَلبَ عليها الغضبُ والانفعال، بل والخوف من أن يعطي القاضي الحقّ للساحرة، فينتزعهما منه. لكنّ اليتيمتين المسكينتين بقيتا تنظران إليه بعيون جاحظة، قبل أن تجهشا بالبكاء.

اشتدّ ساعتها غضبُ دون باولو، وأطلَّ على النافذة، وبدأ يصبُّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جامَ غضبه على الساحرة. أفلتَت مِن فمِه شتائم لاذعةٌ من كلّ الأنواع، تزايدت مع اتّقاد نار غضبه، وتصاعدِ تهديدات العجوز، وازدياد بشاعة شتائم كانت تستقيها من كلّ حَدَبٍ وصَوب. لم تكن العجوز شخصاً يمكن ترويعُه:

-سأقيم عليك دعوى في القضاء! دعوى في القضاء! اشهَدُوا عَلَيّ!

كانت تتوجّه نحو الناس، الذين تجمْهروا ليتمتَّعوا بالمشهد: مشهد دون باولو الذي بدا على النافذة في الأعلى كأنّه واعظٌ على منبره، والعجوز وهي تلوّح بذراعيها في الهواء، منفوشَة الشعر، محمرّة الوجه، مشرّعة الفم، بدت كأنّها ساحرة بالفعل.

-سأدّعي ضدَّك أيّها التنّين الشرّير!

وكانت الأمور ستزداد سوءاً، لولا أن تدخَّلت اثنَتان من الجيران، وأخذتَا بكتف العجوز، وهما تُقَرِّعانِها:

-هل تريدين تغييرَ مصير تلك الصغيرتين؟

ولم يدفعاها داخل البيت لو لم يقل المعلّم روكّو النجّار لدون باولو:

-كيف لك أن ترتكب خطأً مع هذه المرأة؟ هناك العدالة التي تحمي اليتيمَتَين.

انسحبَ دون باولو من وراء النافذة، وعندما وجد اليتيمَتَين متكوِّمتَين إلى جانب الخزانة، بوجهَين مبلَّلَين بالدموع، رقَّ قلبُه على حين غرّة لهما:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-لماذا تبكيان أيّتها الحمقاوان؟ غداً ستأتي الخيّاطة، وسيأتي أيضاً الإسكافي، أمّا الآن فارتديا هذه الجوارب، وهَذَين النَّعْلَين.

ثمّ بدأ بوضع الثياب عليهما كأنّه أمُّهما: فبدأتا تضحكان، وتتجوّلان وهما تقرعان الأرض بالنَّعلين، لأنّهما يعيقان السير السويّ.

فمتى تسنّى لهما انتعال النعال؟

-أمّا الآن فلنطبخْ الحساء - قالَ دون باولو - تعالي يا ليزا، أنتِ الكبيرة وعليكِ إشعالُ المَوقد. هل تعرفين كيف تشعلين الموقَد؟ أجلْ؟ فلنرَ. أمّا أنتِ يا جوفانّا فساعديني في تنظيف عروق الهندباء. بهذه الطريقة.

***

وضَعَهُما في السرير، ثمّ ذهب إلى سريره هو أيضاً، بعد أن اطمأنّ على حماره، وأنهى تنظيف الأطباق والطناجر، كي لا يرهق الصغيرتين. لكنّه لم يتمكّن من النوم.

كان رأسه لدى القاضي، يلوك في ذهنه الأقوال التي سيدلي بها، وكان يتكلّم بصوت مرتفع، وكأنّه أمام ذلك الموظّف وهو يناقشه. وتوقّف عند إمكانيّة أنّ القانون يُخطّئه، فالواقع أنّها هي الوصيّة عليهما، هي القريبة الوحيدة.

-ما أجمل هذا القانون! يضع الحَمَلَ في فم الذِّئب! - واصلَ التشكّي والتذمُّر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان يغضب من نفسه. لماذا وضع نفسَه في هذا المقلب. ماذا كان يهمّه من أمر الطفلتين؟ هل هما ابنتاه؟ القانون يعطيهما للسّاحرة؟ فليعطِهما لها!

كان يتذمّر بهذه الطريقة، لكنّه كان يشعر بضيقٍ في قلبه.

بدأ يشعر، منذ آواهما في بيته، كأنّهما ليستا من دمٍ غيره. فكلّ شيء في شخصِه، وفي بيته، انقلب حيّاً بحيويّة الطفلتين. وبدأ يشعر الآن أنّهما صورتان عن ابنتيه الميّتتين. إنّه لن يستطيع أن يستمرّ في حياته، إذا أبعدوهما عن بيتِه بحكمٍ من القانون.

-وهل تريد إذن أن تقتلني أيّها السيّد القاضي؟ هل تريد أن تلقي بهاتين الطفلتين المسكينتين في عرض الطريق؟

لا. بل إنّه لا بدّ أن يستأنف الحكم، لا بدّ أن يقلب نصف صِقِلّية رأساً على عقب، إذا ارتكب القاضي هذه المَظْلَمة. ليس هناك في العالم كلّه رَجلٌ قادر على التجبّر عليه، على دون باولو. وعمل مثل هذا العمل، هو تجبّر من الساحرة عليه. لا، لن يكون!

-سأذهب في الغد إلى المحامي، قبل التوجّه إلى القاضي. اليتيمتان هما الآن لي، إنّهما ابنتاي، ليزا وجوفانّا! أواه، يا سيّدي القاضي، وهل تريد لي أن أموت بالأسى وحسرة القلب؟

ثمّ نهض من سريره، وذهب ليقبّل الطفلتين المستغرقتين في النوم.

***

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-لماذا تريد أن تجلب لنفسك هذه المصيبة؟ سأله القاضي.

-لماذا؟

اضطرب دون باولو بعض الشيء، ولم يحر جواباً. لم يكن يفكّر في تلك الآونة بابنتيه اللتين مائتا واحدةً في العشرين من عمرها، والثانية في الثامنة عشرة، ولا في فعل الخير والحسنات، ولا حتّى بنفسه: كان يفكّر وحسب بالساحرة التي تحدّته. سنرى من هو الرابح بين الساحرة والتنّين! لكنّ هذا ليس جواباً يمكن تقديمه للقاضي، وإن كان هو وحده الجواب الحقّ، في تلك اللحظة.

-لماذا؟ كرّر دون باولو السؤال مرّة أخرى.

- إنّك أنت نفسك لا تعرف الجواب.

فانفجر دون باولو:

-آه، وهل يريد القانون إذن أن تضيعَ الطفلتان المسكينتان وتَضِلّا؟ لقد آويتُهما لأفعل الخير، لقد نزعتُهما من بين يديّ عمّتهما الساحرة الشمطاء، لأنّها كانت ترسلُهما لتَشحذا وتطلبا الصَّدقات، ولتعيش على كتفَيهما. ولا بدّ أنّها ستفعل ما هو أدهى عندما تكبران. ثمّ يأتي القانون ليقول لي: أعِدْهما إلى الوصيّة عليهما! من الذي كتب هذه القوانين العصملّية (5)؟ فهل يمكنك الآن أيّها السيّد القاضي أنْ تملك الشجاعة لتصبح عصملّياً أكثر من ذلك القانون؟

لم تلجُمْه إلّا ضحكةُ القاضي، الذي بدا أنّه يتمتّع بهذا الحديث، لكنّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دون باولو ما لبث أن استأنف كلامه باندفاع أشدّ:

-بلى إنّك ستصبح عُصمَلّيّاً أكثر من القانون العُصمَلّيّ، إذا قرّرت أن تدعم الساحرة الشريرة! لقد أصبحتُ عجوزاً، وبمنزلة أبيك، ويحقّ لي أن أتكلّم بهذه الطريقة. إيه! افعل ما تشاء، وكيفما تشاء، طالما نحن نعيش في ظلّ قانون أسوأ من القوانين العصملّيّة! لكنّ الله هو الذي يحكم في أعالي السماء، وهو قادر على تصريف أمورنا. افعل ما يحلو لك! سأذهب في الحال لأحضر اليتيمتين إليك. سأسلّمهما إلى القانون، إلى هذا القانون العصملّيّ الرائع...

نهض بعدها وبدأ يبحث عن قبّعته، كان يذكر أنّه تركها في المدخل، كان يجفّف دموعه بالخفاء عن القاضي، وهو يتذمّر مع شيء من التنهّد: قانون عصملّيّ! قانون عصملّيّ!

-بل اجلسْ، ولنناقشْ الأمر بهدوء - قال له القاضي، وهو يحاول لجم ضحكاته، ويشير إليه بكرسيّ أمامه - سأستدعي خلال أسبوع مجلس العائلة، وسنرى ماذا سيحدث...

وهكذا مرّ على دون باولو التنّين أسبوعٌ جهنّميّ، كما كان يقول للأشخاص الذين كانوا يسألونه، وهو يجوب حولهم على غير عادته.

- أسبوعٌ جهنّميّ، ولماذا؟ لفعل الخير! لكنّه فاز.

وعندما قال له القاضي: أصبحت الآن أنت الوصيّ! بدأ دون باولو يبكي بفرح وسرور، وانحنى ليقبّل عنوةً يدَ القاضي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما عاد إلى البيت ورأى اليتيمتين تنظّفان حبوب القمح على الطاولة، كما طلب منهما، شعر بالرقّة تغمر قلبه، فتجمّدت الكلمات في حلقه. عَمّر غليونه، ثمّ ذهب نحو النافذة كي لا ينفضح حاله، كانت يداه ترتعشان من شدّة الانفعال. أطلّ من النافذة، وهو يشعر بالسرور والفخر، كأنّه قداسة البابا بعينه، وبدأ بنفث نفخات الدخان من غليونه، فكانت تخرج من فمه كأنّها غيوم متلاحقة. ألحقها بالبصاق فوق الطريق، وكأنّه يقصد البصاق على رأس الساحرة التي قال لها القاضي: احذري من فتح شدقَيْ فمكِ الشرّير، وإلّا أرسلتُ الشرطيّ ليغلقَهما!

كما أوصاه القاضي أيضاً بالتزام الصمت كي لا يستفزّها، ولا يغيظَها.

لذلك فقد التزم الصمت. أمّا أن يبصق فلا يعني أنّه يستفزّها: النافذة هي نافذته، وكان يدخّن فوقها على الدوام، وهو يريد أن يدخّن فوقها، ما دام حيّاً. أمّا إذا انفجرت الساحرة من الغيظ فهذا أسوأ لها!

هذه المرّة دخّن دون باولو الغليون مرّتين.

***

لم يكن من المستطاع التعرّف إلى الطفلتين، بعد أن ارْتَدَتَا الثياب الجديدة، وانتعلتا نعالاً لائقة. لقد وجدت الخيّاطة الطريقة المناسبة، لتصنع التنّورة من ثوب، والقميص من ثوب آخر. هكذا، وفي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نهاية الأمر، تمكّنت وكيفما اتّفق، من تعديل قماش ثَوْبَيْ طفلتَيه المسكينتَيْن. وبهذا تجسّدت أوهامٍ دون باولو، على أحسن طريقة. بل تهيّأ له أنّ ليزا وجوفانّا قد بُعِثتَا من جديد، بعدما رأى الطفلتين تنهضان كلّ صباح، ترتديان تلك الثياب، وتمشّطان شعرهما، ثمّ تتهندمان بإشرافه.

-أنت يا ليزا، نظّفي الغرفة، وأنت يا جوفانّا أزيلي الغبار عن الأثاث، وكلّ ما هنالك.

وكانت الطفلتان تطيعان صامتتَين نجولتَين من العجوز، ومندهشتَين من هذا التغيير في ظروف حياتهما.

-لقد انتهيتُ من التّنظيف، يا جَدّي.

-لقد انتهيت من إزالة الغبار، يا جَدّي.

كانتا تناديانه بالجدّ، أي باللقب الأكثر احتراماً، والأشدّ وِدّاً، في صِقِلّية تجاه كبار السنّ.

-أحسنتُما!

في يوم الأحد كان يأخذُهما إلى الصلاة في الكنيسة، وهما ترتديان ثياباً للعيد، بقماشٍ أفضل، أُخِذ من قطعتَين جديدتَين من شالٍ من الصوف الخالص، لأنّ قماش ملابس ابنتيه أتى العثُّ على أكثره، وما عاد بالإمكان استعمالُه.

-صَلّيا من أجل صحّة جدّكما يا بنيّتَيّ!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثار سخطُه على الساحرة من جديد، عندما سألتْه ليزا ذاتَ يوم أحد:

-كيف نُصلّي؟

-أبانا الذي في السموات، والسلام عليك يا مريم.

-لا نعرفُها.

يا أيّتها الساحرة الشرّيرة! لم تعلّمْهُما حتّى «أبانا الذي في السموات، والسلام عليك يا مريم»! كانت تربّيهما كحيوانَين، لا يقدران إلّا على طلب الصَّدَقات! أيّتها الساحرة الشرّيرة!

ما إنْ عاد إلى البيت، حتّى جلس ووضعهما بين ساقيه، ووضع يديه على كتفَيهما، وبدأ بتعليمِهما تلك الصَّلَوات.

-رَدِّدا ورائي ما أقوله.

***

لكنّه في أغلب الأحيان، في الليل، كان ما إنْ يَدخلَ سريره، حتّى تقتحم كلماتُ القاضي ذاكرته بإصرار:

-لماذا تريد أن تجلب لنفسك هذه المصيبة؟

كان حينها يشعر بثِقَل المسؤوليّة التي ألقاها على عاتقه، فيعود ليغضبَ من نفسه، كما فعل في المرّات السابقة. لم تكن الأفكار قبلها تثقل رأسه. كان هادئاً، صافي الذهن. من بيته إلى البستان، ومن البيت إلى الكنيسة، هذه كانت حياته. أمّا الآن فهو يشعر، وهو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يضع السرج على ظهر حماره، بشيء من تأنيب الضمير، لأنّه يبتعد عن البيت نصف نهار، أمّا عندما يكون في البستان، فإنّه لم يعد يفكّر بعمله وبمراقبة الفلّاحين، بمقدار تفكيره بالطفلتين، لأنّهما وحيدتان في البيت، وعليه لهذا أن يعود إلى المدينة. أي أنّه فقد الراحة الجميلة، وطمأنينة النفس، كما فقد حرّيته. لقد كان القاضي على حقّ. فلماذا كان عليه أن يجلب لنفسه هذه المصيبة؟

كان غضبه يزداد، إذا حدث وأن شعر أنّه منهك من تعب يومه، أو إذا آلمه رأسه، أو ضايقه السعال. كما أنّه يكاد يجنّ عندما كان يفكّر بأنّه سيموت، وبأنّه سيترك المسكينتين تواجهان مصيرهما الأسود، وحيدتين. كان في السابق يجد أنّ السعادة تكمن في انتقاله إلى العالم الآخر، ليستريح إلى جانب زوجته وطفلتيه في مقبرة الكابّوتشيني. كان كلّ مساء يتلو صلواته على أرواح أمواته الغاليات، وكان يرجوهنّ قائلاً: تعالَينَ لأخذي، فماذا أصنع هنا من دونكنّ؟ أمّا الآن... لم يعد بوسعه الآن أن يموت مطمئنّاً. فكيف سيكون وضع الاثنتين بعده؟ حتّى لو ترك لهما كلّ أملاكه... ماذا ستفعلان بها؟ من سيكفلهما، من سيحميهما من الأشرار؟ هذه هي نتيجة عمل الخير الذي فعله! كان الحقّ مع القاضي، لماذا أراد أن يجلب المصائب لنفسه؟ لستُ إلّا عجوزاً خرفاً! هكذا كان يهذي وهو يتقلّب في سريره...

كان هذا الأرق علامةً في حدّ ذاته على أمر ما سيّئ. فمتى كان يأوي إلى سريره من غير أن ينام في الحال؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

آه، آه، هل كان يظنّ أنّه سيعيش عمراً يناهز الذي عاشه متوشالخ(6)؟... لو كان هناك من هو قادر على أن يسلخ عنه تلك الاثنتين وسبعين سنة التي يحملها على ظهره!... لهذا أراد أن يجلب تلك المصائب إلى نفسه!

لقد أصبحت كلمات القاضي تتردّد في أُذنَيْ دون باولو كأنّها لازمةُ قصيدة.

وفي نهاية الأمر فإنّ الله يراه، وهو ميّت لا محالة، لكنّه لا يتذكّر هذا إلّا بسبب اليتيمتيْن المسكينتيْن... إذ لا بدّ أنّ الله والعذراء المقدّسة سيتركانه يعيش عشر سنوات أخرى، على أقلّ تقدير. فماذا يهمّهم، في أعالي جنان السماء، من أمر عجوزٍ مُتَنَخِّم(7) مثله؟ ألم يكتفوا بثلاث أرواح سويّة أخذوها جميعها في مرّة واحدة؟ أمّا إذا عاش فبوسعه أن يحسّن وضع الطفلتَين، ويمكن له أن يزوجهما ويجهّزهما، بما أنّهما صارتا الآن ابنتَيه حقّاً، بعدها... بعدها، يمكن له أن يغلق عينيه بسلام واطمئنان. ليس له مطالب أخرى. وهل هناك من حاجةٍ إلى معجزة كي يتمكّن من العيش حتّى الثمانين من العمر؟

Telegram:@mbooks90

كان يكرّر كلّ مساء هذه الكلمات نفسها، ثمّ يجترّها ويلوكها خلال النهار، عندما كانت تظهر اليتيمتان حوله، وهما تكنّسان وتنظّفان وترتّبان، كأنّهما امرأتان صغيرتان، مفعمتان بالحيويّة والنشاط والبهجة، والحرص على تنفيذ الأوامر، بل وبأخذ المبادرة في كثيرٍ من الأمور، ودون حاجة إلى نصائح الجدّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

كان يعجّل في تدريبهما، خشية أن يدركه الوقت.

-تعالي يا ليزا، سأعلّمك نَخْلَ الطحين.

وكان قد حضّر الصندوق الخاصّ على قوائم خشبيّة، ووضع فيه كمّية معتبرة من الطحين.

-هذا هو غربال النخالة. انظري كيف تمسكينه وتهزّينه، وأنت تديرينه بين يديك، ثمّ تُقلَب النخالة المتبقّية في الغربال داخل المِذْوَد، ليأكل منها الحمار. كما أنّنا سنضع هذا الصيف في الحظيرة خنزيراً صغيراً، وذلك لنذبحه في عيد الميلاد، ونصنع من لحمه أنواع المقانق والسُّجق.

كان يضحك وهو يفكر بذلك الخنزير، وهو يغربل ويغربل ويكرّر:

-هل فهمتِ؟ نمسكه بهذه الطريقة ونهزّه، ونحن نديره بين أيدينا من طرف لآخر. فلنرَ إذا كنت ستنجحين في هذا. لكن عليك أوّلاً أن تلفّي رأسك بالمنديل.

كانت قوائم الصندوق طويلة، ولم يكن باستطاعة ليزا الوصول إليه.

-انتظري، سنضع شيئاً تحت قدميك.

كان دون باولو يراقبها بيقظة ويشجّعها - أحسنتِ! رائع! بينما كانت عيناه تغرورقان بالدموع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-وأنتِ يا جوفانّا، الخبز، أوقدي النار تحت المرجل لتسخين الماء، سنعجن الخبز، وستعجنين أنت أيضاً. يجب أن تصبحي سيّدة بيت مثل أختك. بعد سنوات، عندما تكبرين ستغربلين الطحين مثلها. نضع الملح في الماء، فيعطي نكهةً للخبز.

كانت هذه المعاملة تسلّي الطفلتَيْن، وإن كان دون باولو يستمتع أكثر منهما، كان يلقي نظراته مرّة على ليزا، التي عفّرها الطحين، وأخرى على جوفانّا، التي كانت تتعثّر، وهي تكسّر أغصان الزيتون اليابسة، لتذكي بها النار تحت المِرْجَل.

-بدأ الماء يغلي. يجب صنع العجينة، شمّرا الأكمام حتّى المرافق.

جمّع الطحين بيديه على المنضدة، وجعل في وسطه حفرة صغيرة، وصبّ الماء بعد قليل فيها.

-احذري، ألّا يلسعك الماءُ الساخن!

كانت ليزا قد مدّت يديها، لكنّه أوقفها. ثمّ خلع سترته، وشمّر هو أيضاً عن ساعديه. أراد أن يعلّمهما بأسلوب واقعيّ.

-يجب أن يتغلغل الماء شيئاً فشيئاً في الطحين. نصبّ بعدها مزيداً من الماء، ونعجن من جديد. بعد صنع العجينة نعركها بقبضات الأيدي، حتّى تتماسك. هيّا، تَعالَيَا هنا أنتما الاثنتان: سأصنع منها لفّتين، واحدة كبيرة، والأخرى صغيرة. هيّا! سأذهب الآن لأحضّر قطّاعة العجين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتهجت الطفلتان بغمس قبضات أيديهما في لفّتيْ العجين، وكانتا تفردانهما، ثمّ تلفّانهما وتلويانهما، وتعودان لفردهما من جديد، ذلك وهما تتدافعان بالأكواع، وتتضاحكان بمرح وسرور، وتتراهنان على السبق، وتسرقان الواحدة من الأخرى، لتزيد كلّ منهما عجينها على حساب عجين الأخرى.

-إنّهما مثل ليزا وجوفانّا رحمهما الله! فكّر دون باولو وقد رقّ قلبه للمشهد وللذكريات.

-كفى الآن! جاء الآن دوري. قال في النهاية.

جمع اللفّتين في لفّة واحدة، ودوّرها وأطالها، ثمّ لفّها وجعلها لفّة قصيرة جدّاً، كان يدهن، من حين لآخر، قعر حوض التخمير بشيء من الزيت، كي لا يعلق عليه العجين. وعندما انتهى من تجهيز الأمور، وضع الحوض في وسط العجّانة. ثمّ جلس القرفصاء في أعلاها، حيث تدخل العتلة بين لوحي الأستناد المستقيمين، وقال لهما:

-أنتما، واحدة من هنا والأخرى من هناك، ارفعا العتلة واخفضاها، وسأتولّى أنا أمر لفّة العجين.

لم يسمع خلال خمس دقائق إلّا ضجيج محور العتلة، بينما الطفلتان في صعود وهبوط، تضحكان على وقع صوت الضجيج، ودون باولو يلفّ اللفّة من هنا وهناك، ويعيد فيها، بيديه، الأطراف التي تدلّت منها، ثمّ يعدّل وضعها، لتبقى تحت منتصف العتلة التي تساعد على تقسية العجين. وذلك إلى أن بدا له أنّ الوقت قد حان ليقول لهما:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-توقّفا!

ارتفع عندها ضجيج من نوع آخر، وذلك حين بدأ تقريص العجين ورقّه:

-هذه لي.

-وهذه للجدّ.

-لا، للجدّ يجب تخصيص الخبز المعروك. سنخبزه فيما بعد. سنرسل العجين هذه المرّة إلى الخبّازة لتخبزه في الفرن.

كان وجه كلٍّ من الطفلتين مشرقاً، على الرغم ممّا عليهما من طحين، كما كانت أيديهما وأذرعهما ملوّثة بالعجين. كان بودّ دون باولو أن يقبّلهما، لولا أنّه يعدّ القبل إفراطاً في الحنان. إنّه جلفٌ بعض الشيء، لذلك فقد لجم حيويّتهما متذمّراً:

-هيّا، هيّا، اغسلا أيديكما، وأزيلا العجين عنها.

كان في كلّ يوم يعطيهما درساً عمليّاً. كان دون باولو يحسن صنع كلّ شيء، بل كان يرفو الجوارب أيضاً، وكان يريد تعليمهما كلّ شيء بنفسه، لأنّه لا يحبّ أن يرى أشخاصاً غرباء يأتون إلى بيته. وإذا ما سأله أحدهم عن البنتين قائلاً:

-لماذا لا ترسلهما إلى المدرسة؟

-إلى المدرسة؟ كان يتساءل بشيء من الغضب - لم تكن ابنتاي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعرفان القراءة لكنّهما كانتا سيّدتي بيت. أمّا اليوم فالطفلة قد تصبح دكتورة، لكن ما الهدف؟ إذا كانت لا تعرف أن ترفو جوربًا، أو أن ترتق ثوبًا، أو أن تطبخ حساءً! المدارس هي للأميرات فقط.

وما كان لدون باولو أن يتنازل عن هذه الآراء.

-أنا من الطراز القديم - كان يضيف - أيْ مِن زمان كانَ فيه الناس لا يقرؤون الكثير، لكنّهم كانوا أكثر رجولة، وأشدّ فروسيّة. أليس هذا صحيحاً؟

لا فائدة من وراء أيّ نقاش معه لإقناعه. كان لا يريد السير إلّا على النهج القديم.

***

وإذا أراد أن يروّح، من حين لآخر، عن نفس الطفلتيْن، فإنّه كان يأخذهما إلى بستان دوغوارا، الذي زرعه بأشجار الزيتون واللوز، وبشيء من العنب على الأطراف. أو كان يأخذهما إلى بستان «حَجَر الموسيقا»، حيث زرع القمح والفول والحمّص. كان هذا البستان هو المهر الذي أخذه من زوجته. قرّر الآن أن يعطي بستان دوغوارا لليزا، وبستان حجر الموسيقا لجوفانّا، هذا بعدما تبرهنان على أنّهما تستحقّان ذلك، أي إذا أظهرتا الطيبة التي يتوقّعها، وأصبحتا فاضلتَيْن، وسيّدتَيْ بيتٍ، كما كان يريد.

في الليالي التي كان يسيطر عليه الأرق خلالها، كان كثيراً ما يفكّر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالوصيّة، التي عليه أن يكتبها، كي لا تُلقى اليتيمتان، بعد موته، في وسط الطريق، وكي لا تذهب أملاكه إلى مصلحة الضرائب، لأنّه لا أقارب له، لا قريبين ولا بعيدين.

لكنّه لم يكن يتمكّن من الوصول إلى نتيجة: كان يتطيّر من الذهاب إلى كاتب العدل، وكتابة الوصيّة، فهذا في ظنّه مجلبة للنحس.

ثمّ لِمَ العجلة في الأمر؟ لقد تشاور مع كاهن صديق له، كان قد عمّد ليزا، فأجابه ذلك الخادم المطيع لربّه، وهو يضحك:

-إنّك تريد إذن أن تشتري لك مكاناً جميلاً في الجنّة؟ عملك هذا رائع حقّاً يا صديقي.

لكن ليس هناك مدعاة للعجلة، فالجنّة واسعة. وعندما يقرّر، سيستطيع حتماً أن يجد فيها مكاناً له، ولزوجته، ولابنتيه. هذا إذا كانوا ما زالوا حتّى الآن في البرزخ. لِمَ لا، أوَلَمْ يُقِم في ذكرى الأموات من كلّ سنة، ثلاثة قداديس من أجل خلاص تلك الأرواح المباركة؟

لا، لا مدعاة للعجلة إذن. لكنّه كان يشعر دائماً أنّ قلبه معلّق، والموت يأتي حين لا نتوقّع قدومه، ودون مقدّمات. فلا ينتظرنّ الزمانَ من يملك من الوقت شيئاً...

إنّه يتّفق مع هذا الرأي، غير أنّ فكرة النحس كانت كالشوكة في حلقه، وكانت تمنعه من اتّخاذ القرار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا فقد تملّكه الفزع يوم قالوا له:

-لقد ماتت العرجاء. هل أنت مسرور؟

كان يسمّيها الساحرة، بينما يسميّها الجميع العرجاء.

كانت مفعمة بالصحّة، مشبعة بالعافية، بدينة، لكنّها ماتت في حادث، خلال دقيقة.

-فليغفر الله لها - وكرّر: ليسامحها الله على ما كانت تنوي فعله باليتيمتيْن!

رأى في تلك الميتة تحذيراً له. فماذا لو أصابه هو ذلك الحادث؟ ثمّ صلّب بإشارة الصليب، ليطرد تلك الأفكار السوداء. وفي المساء قال للطفلتيْن، اللتين التزمتا الصمت عند سماعهما الخبر:

-فلنتلو الصلوات والتسابيح على روح...

كان سيقول: الساحرة، لكنّه استأنف في الحال، وكانت تلك هي المرّة الأولى والأخيرة، التي حدث له فيها أن سمّاها «العمّة».

***

لا، لا يريد أن يموت الآن، خاصّة وأنّ بيته انقلب جميلاً بهيّاً، كأنّما بُعث إلى الحياة من جديد. لقد تمّ طلاؤه، وعمّه النظام، وأشرقت فيه النظافة، وامتلأت شرفته بأزهار القرنفل ونبتات النعناع والريحان والياسمين، الذي بدأ يتسلّق على الجدران، ليذكّر بليزا التي كانت تحبّه وتسهر على ريّه، وتنظيفه من الأوراق اليابسة. بل إنّها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عملت على تقليمه، قبيل أيّام من مصيبتها. لقد اعتنى دون باولو بغرسَةِ الياسمين تلك، طوال سنين عديدة، وكان يقطف أزهارها، ويحفظها في علبة خاصّة، وكأنّها بقايا حيّة من أثر ابنته المسكينة. لقد اشتدّ الآن عود الغرسة وغلظ، فتمدّدت بأغصانها على مساند القصب. فبدأ يشعر بنفحات الحياة الجديدة التي بدأت تنعش جميع أرجاء البيت. إن الغرسة تخضرّ الآن وتزهر، كما لم تخضرّ وتزهر من قبل، إنّها تحتفل بليزا الجديدة.

-هذه هي ياسمينة ليزا - قال دون باولو لجوفانّا.

-لماذا؟ - سألت الطفلة، وقد شعرت بشيء من الغيرة بسبب هذا التمييز.

-لأنّها تسمّى ليزا. أمّا أنتِ فَلَكِ أزهار الأقحوان ونبتات الريحان والنعناع.

-لكنّي أسقيها أنا أيضاً.

-لا. يجب أن تسقيها هي، هي فقط.

كان ذلك العجوز المسكين يريد أن يستمتع بكلّ أوهامه.

خاصّة وأنّ الخريف بدأ ينشر في قلبه حزناً عظيماً. كما حدث في الخريف المنصرم، تخيّل، وقتها، أنّ ذلك سيكون آخر خريف في حياته. أخطأ. بل حدث أنّ حالفه الحظّ وجاءته تلك الطفلتان.

-هذا يعني أنّ الله سيمنحني الوقت الكافي، لأربّي هاتين المخلوقتين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا عدل وحقّ.

كانت هذه محاولة منه ليُطمْئن قلبه، لذلك فإنّه كان يستشيط غضباً، كلّما جاء صديقه الكاهن، الذي سبق وأن كلّمه بمسألة الوصيّة، ليذكّره بها، ويشجّعه على الإسراع بكتابتها، والانتهاء من أمرها.

-أوه، وهل وضعت قدميّ في القبر؟ - كان يجيب.

كان يشعر بالعافية، وبقدميه ثابتتين فوق الأرض. سهر على قطاف العنب والزيتون، وكأنّه شابّ في العشرين من العمر. وهو يحضّر الآن لزراعة القمح والفول. لذلك فلا وقت لديه للتفكير بالوصيّة. سيفكّر فيها، وسيزيدها تفكيراً، حتّى تنضج أفكاره. وسيتكلّم بالأمر معه، بعد ذلك، في الشتاء القادم، بعد عيد الميلاد.

وعلى سيرة عيد الميلاد. تذكّر أنّ مُنشدي أنشودة نينّا ريدّا(8) لم يأتوا خلال ليالي تسعيّة(9) عيد الميلاد لينشدوا تحت نافذته، فقد نسوا أنّه موجود أساساً في هذا العالم، وذلك بعد مضيّ سنين عديدة على انضوائه وتخفّيه. أمّا الآن وقد أصبحت الطفلتان في بيته، فإنّه يريد أن تُنْشد أناشيد نينّا ريدا تحت نافذته، كما تنشد تحت نوافذ الجميع. وبوسعه أن يقدّم إلى المنشدين هدايا لا يقدّمها أحد غيره، عندما يزورونه في بيته نهاراً، كما هي العادة. حلوى، كاليا(10)، نبيذ... والنبيذ هذا العام هو من ذاك...!

في اليوم الأوّل من التسعيّة قابل المنشدين، الذين كانوا يسيرون وراء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمثال من شمع للمسيح طفلاً، سيُقَدَّمُ لجارة له في كنيسة اليتيمات. أيّ صخب، وأيّة بهجة، كان يثيرها أولئك المنشدون، وهم يعزفون على ثلاث كمنجات صغيرة، وكمان كونترباس كبير. يسيرون بين ثلاثين من الفتيان، يتقدّمونهم مرّة ويسبقونهم مرّات، وهم يتواثبون مرحين، وكأنّ تمثال المسيح طفلاً أصبح من نصيبهم!

كان دون باولو يُصلّح حدوة حماره، عندما مرّ المنشدون أمام باب بيته، فأشار إلى المعلّم غايتانو والمعلّم نيلي، وهو يبتسم لهما، ويقول بصوت مرتفع يسمعه الجميع:

-لا تنسياني!

تابع المنشدون سيرهم، من غير أن يجيبوا، بل وهم يتمتمون بكلام فيما بينهم، ويواصلون الضرب على أوتار آلاتهم. لكنّه كان على اقتناع بأنّهم فهموا قصده. لهذا فإنّه نبّه في المساء الطفلتيْن، عندما كانتا تستعدّان للتوجّه نحو السرير، بعد العشاء:

-سأوقظكما أنا في الليل، عندما يحين الوقت. أمّا في الغد فسنعمل على عجن الطحين مع النبيذ المطبوخ والعسل، وسنصنع قطع الكاليا.

قالت ليزا لجوفانّا، وهما تغيّران ملابسهما:

-أنا لن أنام.

-ولا أنا.

لكنّ دون باولو سمعهما من غرفته المجاورة فأضاف:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-عليكما أن تناما الآن، وسيوقظكما الجدّ.

-فلنتصنّع النوم - همست ليزا في أذن جوفانّا.

-أجل، أجل!

تصنّعتا النوم بشكل جيّد، حتّى إنّهما غرقتا في نوم عميق.

***

تلهّى دون باولو في ترتيب رسن الحمار، وهو ينتظر وصول المنشدين، وكان يرسم في خياله اللّذة التي سيشعر بها، عندما يذهب ليوقظ الطفلتيْن، على وقع أولى دندنات نشيد نينّا ريدّا.

على الرغم من حلول منتصف الليل، فإنّه لم يصدر أيّ صوت عن المنشدين، لا من قريب ولا من بعيد. لا بدّ أنّهم بدؤوا مسيرتهم من طرف البلدة الثاني. مساكين! إنّهم يتجوّلون وسط هذا البرد، والعزف بأصابع مخدّرة ليس أمراً مسلّياً. لكنّهم سيتقاسمون في ختام التسعيّة صرّةً معتبرة، كميّات من الحلوى وأكياس كثيرة من الكاليا، هذا إذا لم نحسب ما سيصلهم من النبيذ! مساكين! لكنّهم يستحقّون كلّ هذه الهدايا!...

-آه! ها هم.

كانت تصل أصوات بعيدة جدّاً تشبه نخيرَ كمانِ الكونترباس، تقرّبها الريح أحياناً، وتبعدها أحياناً أخرى. لم يصبر دون باولو على تحمّل العدد الكبير من محطّاتهم، خاصّة وأنّ حساباته لم تظهر له بيوتاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كثيرة على طريقهم إليه، ليتوقّفوا عندها كلّ هذه الوقفات. هناك فقط الدكتور شيبولّا، عائلة كارك، كاتب العدل مياني، ثمّ بيته هو.

-أوه!

ها هي الآن أصوات آلات الكمان تُسمع واضحة، إلى جانب صوت الكونترباس. شعر دون باولو برقّة في قلبه، ولين. وما إن خمّن أنّ المنشدين وصلوا إلى بيت كاتب العدل مياني، حتّى ألقى الرسن على الأرض ونهض من مقعده، وذهب ليفتح باب غرفة الطفلتيْن ليوقظهما.

- كم ستكونان سعيدَتَين!

ظنّ أنّ المنشدين يتباطؤون هناك عن عمد. ألم يكفهم ما أنشدوه من نينّا رَيدّا! بل ها هم ينشدون الآن أنشودة مرح!

-على كلٍّ سيفعلون مثل هذا تحت بيتي - فكّر.

سمع وسط سكون الليل صوت أحذيتهم الضخمة، وأصوات المنشدين وهم يتحادثون فيما بينهم ويتضاحكون...

-سيقفون هنا الآن...

لكنّ المنشدين تجاوزوا البيت. هنا اشتدّ غضب دون باولو، وبدأ يرتجف من شدّة حنقه، على هذا الازدراء الموجّه إليه. غير أنّه بقي يحافظ على أوهنامه، طيلة وقت سماعه وقعَ أقدامهم القريبة. ثمّ نظر بعينين ملؤهما الدموع إلى الطفلتيْن النائمتين، ولوّح بقبضته وكأنّما ليهدّد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولئك السكّيرين المخمورين!

-وأين النينّا ريدّا؟ سألت الطفلتان في صبيحة اليوم التالي.

-كيف؟ وهل أنساكما النوم العميق فأنتما لا تذكران؟ أجاب دون باولو وهو يتصنّع الضحك - علماً أنّي أيقظتكما.

ثمّ ذهب ليغسل دماغ المعلّم غايتانو.

-كنت سأدفع لكم أكثر من غيري! هل فهمت؟ فعندي الآن طفلتان.

***

أراد أن يأخذهما في ليلة عيد الميلاد لمشاهدة مجسَّم المغارة(11) ولحضور قُدّاس منتصف الليل.

كانت السماء ممطرة، والرياح ثائرة، لكنّ الكنيسة كانت قريبة على بعد خطوات من البيت، فلم يرَ دون باولو أنّه يرتكب حماقة بالخروج من البيت وهو في ذلك العمر. بدأ بلعب لعبة البطّة(12) معهما لكي يبقيهما يقظتيْن حتّى حلول منتصف الليل. وكان يلجأ إلى الغشّ في تعداد نقاطه، حتّى يبدو أنّه يخسر معهما على الدوام. وكان في كلّ مرّة يتصنّع أنّه غضبان عند ظهور الخسارة.

-يا إلهي! لقد عرّيتماني من ثيابي.

كان الرهان على عشرين حبّة بندق، لكنّه كان يدفع خسائره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالمال. فكانت الطفلتان تضحكان، وهما تشاهدان تكوّم المال أمامَهُما، بينما بقيت حَبَّات البندق التي يملكونها على حالها.

-يا إلهي! لقد عرّيتماني من ثيابي. هذه آخر قطعة نقود أملكها.

وهنا قام دون باولو بسحب أحد جيبيه، إلى خارج السروال.

-لا، ما زال فيها نقود أخرى.

كان هناك دائماً نقود أخرى في هذا الجيب أو ذاك.

قامت ليزا بعدّ نقودها: خمس عشرة قطعة، وعدّت جوفانّا من الطرف الآخر: اثنتا عشرة قطعة!

-أوه! ها هي النواقيس تقرع. إنّها تؤْذن ببدء أنشودة القدّاس.

Telegram:@mbooks90

كانت النواقيس تقرع بأنغام مرحة، لتبشّر بالمجد في السماء، والسلام على الأرض، بينما بدأ الناس يغصّون شيئاً فشيئاً في الطرقات.

-سننطلق إلى الكنيسة عند الإشارة التالية.

هذا بينما واصل تغاضيه عن لعبة تعريته من نقوده، كما كان يدّعي. لا بل إنّه أخبرهما أنّه يريد متابعة اللعب والرهان على نقود بالوعد، لأنّه لم يبقَ لديه مال ينقدُه. ثمّ سحب نصفي ليرة فضّيّين وقال بكلّ جدّيّة ووقار:

-إذا ربحتما نصفَي الليرة هذين أيضاً، فلن أستطيع أن أشتري شيئاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الغد.

-سنشتري نحن، أجابت ليزا متضاحكة.

-أحسنت!

تركهما دون باولو يجرّدانه حتّى من نصفَي الليرة الفضّيَّين، وذلك قبل أن تعلن النواقيس الإشارة الثانية.

ازدحمت الكنيسة بالمصلّين، وعمّت الفوضى، كان الناس يصلون زُرافات، وبدأ أحد الغنّامة يزعق بمزمار قِرْبَته، نشيدَ نينّا ريدّا، بينما كان خدّام الكنيسة يشعلون أضواء المذبح. كانت الأمطار والرياح تهزّ زجاج الواجهات الكبيرة، والباب المفتوح على الدوام، وتنفث نفحات هواء رطبة وباردة، ومع هذا فقد كان الجوّ حارّاً جدّاً داخل الكنيسة.

-قد يصاب المرء بالمرض عند الخروج. فكّر دون باولو.

وفي الواقع فقد أصيب بالمرض. سعال وحمّى، حمّى وسعال. لم يشأ في البداية أن يلزم السرير، أو أن يستدعي الطبيب، لكنّه اقتنع في النهاية أنّ هذا ضروريّ، كي لا تتدهور حالته.

ومع ذلك فقد سهر حتّى ساعة متأخّرة، وذهب إلى السرير بعد الجميع، ذلك كي يتوهّم أنّه لا يلجأ إلى سرير المرض.

في صباح اليوم التالي لم يشعر بقوّة تعينه على النهوض من السرير، لكنّه أيقظ الطفلتين وقال لهما:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-اذهبا إلى الدكتور شيبولّا القريب من هنا، واطلبا منه أن يأتي ليزورني، خذا مفتاح البيت معكما.

عندما سمع أنّ الطفلتين أغلقتا الباب، شعر أنّه وحيدٌ بالفعل، مهجور، وأحسّ أنّ جميع مخاوف الليلة الماضية تنهال عليه.

-هذه المرّة هي النهاية! - بدأ يكرّر على نفسه، ليس هناك من علاج! فهل عليّ أن أستدعي كاتب العدل بدل الطبيب؟

لا، لا. لا يمكن للمسيح طفلاً أن يكافئه بهذه الطريقة لأنّه ذهب إلى قدّاس منتصف الليل، هل يكافئه بدفعه إلى الموت. لا، فالمسيح الطفل رحيم ولا بدّ أن يتذكّر أنّ الطفلتين ستبقيان من غير معينٍ ولا هادٍ، إذا هلك الوصيّ عليهما، بسبب الحمّى والسعال الذي يخنق أنفاسه.

كان الدكتور شيبولّا طويل القامة، طويلاً طويلاً، نحيف القدّ نحيفاً، يتقلّد عصاه تحت إبطه، يصلّح كلّ دقيقة طرف ياقة قميصه. دخل مبتسماً، ولم يخلع قبّعته الشبيهة بالمكيال، لأنّه يخشى نزلة الصدر، ووقف أمام السرير.

لا أحد يدري لماذا كان يلقّب الطبيب بالقدّيس بانتاليوني، ربّما بسبب قامته، ولأنّ كلمة القدّيس بانتاليوني تشير، في وقع لفظها وتشكيل حروفها، إلى شيء ما طويل، بشكل غير متناسق.

-اجلس أيّها الطبيب، اجلس! قال دون باولو بصوت أجشّ يقطّعه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السعال.

لم يتحمّل أن يراه منتصباً أمامه على قدميه، وهو يعتمر ذلك البوق الذي يكاد يلمس قبّة الغرفة، ويرتدي تلك الياقة التي لا تسمح له بخفض رأسه.

-اجلس أيّها الطبيب!

كرّر أقواله لأنّه خشي ألّا يصل صوته المريض إلى ذلك الارتفاع، ليبلغ ذلك البوق، وتحته أذناه، المسدودتان بالقطن على الدوام.

-وأنتما اذهبا من هنا - أضاف ليبعد الطفلتيْن عن المكان.

ما إن خرجت الطفلتان حتّى بدأ يبكي ويتنهّد:

-أخبرني بالحقيقة أيّها الطبيب! من أجل الطفلتيْن، لا أريد أن أتركهما على قارعة الطريق، قل لي الحقيقة!

-هناك أمور يا عزيزي دون باولو - قال الطبيب وهو يشدّ طرف ياقة قميصه - يجب ألّا تؤجّل إلى اللحظات الأخيرة، عندما لا يمكن للرأس أن يستقيم على الجسد! وهكذا هي أيضاً أمور الكنيسة المقدّسة.

-هل أنا هالك إذن؟

-علينا ألّا نبالغ عزيزي دون باولو!... هاك الآن دواء يهدّئ السعال! ملعقة كلّ ساعة، ثُمَّ سنداوي الحمّى... ليس هناك أيّ خطر.

هذا هو حكم الموت قد صدر! فكّر دون باولو، وهو يتابع بنظراته اليد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تكتب الوصفة على نخذ قدمٍ ملفوفة فوق القدم الأخرى.

قبل أن يغادر الطبيب، رجاه أن يبعث له بكاتب العدل ميانى، من أجل كتابة الوصيّة، فهما جاران وليس في هذا الطلب إزعاج له.

كان الدكتور شيبولّا يهتمّ أيضاً بتطبيب نفوس زبائنه، فبعد أن بعث له كاتب العدل أرسل أيضاً بطلب صديقه الكاهن.

لكنّ دون باولو، الذي كان قد بذل جهداً عظيماً ليتغلّب على فكرة النحس في الوصيّة، لم يتمكّن من لجم لسانه، عندما رأى الكاهن على بابه، فقال:

-هل جئتني أنت أيضاً بالنحس؟ اتركوني بسلام!

-جئت في زيارتك، قال الكاهن مستميحاً العذر.

لكنّ دون باولو واصل الصياح:

-لا يا صديقي، الاعتراف يعني أنّي سأموت!

-هل أنت مسيحيّ؟ نعم أو لا؟

-مسيحيّ جدّاً، لكنّي إن اعترفت، وتناولت القربان، فهذا يعني أنّي سأموت!

-المقدّسات هي أفضل دواء يا صديقي.

-ولكن إذا لم تكن قد حانت بعدُ ساعة موتي...

لم يكن يريد أن يموت، هذه المرّة على أقلّ تقدير. بل فكّر على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقته، وتكلّم بصعوبة بين نوبة سعال وأخرى، وذلك ليقنع الكاهن، الذي كان يكتم ضحكته بصعوبة ظاهرة.

-كيف حدث ذلك؟ لقد ذهبت إلى قدّاس عيد الميلاد تعبّداً، وأخذت معي الطفلتيْن فهل يكافئني الربّ على عبادتي بالحكم عليّ بالموت؟ لا، لا يمكن. الله عادل. لا يمكن أن يرسلني إلى الجحيم، إنّي لم أسرق، ولم أقتل، ولم أكذب، بل إنّي فعلت أعمالاً صالحة تجعلني أستحقّ الجنّة...

-ليس هذا الكلام من اختصاصك - قاطعه الكاهن.

-عندما يرى الربّ أنّي قد اعترفت، وتناولت القربان المقدّس، قد يقول: من الأفضل أن ندخل دون باولو المسكين هذا إلى الجنّة، بما أنّه أصبح الآن في أفضالنا ورحمتنا! لا، يا ربّي القدّوس! اتركني هنا على هذه الأرض... ألا ترى أنّه ليس هناك غيري ليرعى هاتين اليتيمتيْن، وأنّي إذا متّ، فإنّهم سيجرّدونهما من كلّ شيء، ويعيدونهما إلى البؤس والفقر والعوز، على الرغم من كلّ الوصّية التي كتبتها؟ اتركني على هذه الأرض زمناً قصيراً آخر...!

-إنّ الله يعرف حقّ المعرفة ماذا عليه أن يفعل، وليس بحاجة إلى نصائحك!...

-إنّي لا أنصح، إنّي أبتهل! ويجب عليك أن تبتهل أنت أيضاً خلال القدّاس! أقول إنّ الربّ لن يلعنني، ومع هذا فإنّ اللعنة ستحلّ بي، إذا ما متُّ من غير أن أعترف... أعطني إذن صحّة في بدني، ليس من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجلي، بل من أجل اليتيمتيْن... لهذا فإنّي لن أعترف، لا، لا، ثمّ لا! بوسعك أن تذهب، يا صديقي الكاهن!

انتقل الكاهن من الضحك إلى الانفعال، بسبب كلّ هذه السذاجة، التي تعني في نهاية الأمر إيماناً عميقاً بالله. لذلك فإنّه لم يصرّ، هذا كي لا يزعج المريض أيضاً، على الرغم من أنّ أموره لا تبدو خطيرة، وهذا ما أكّده الدكتور شيبولّا أيضاً.

-اخلد إلى الراحة، لقد ثرثرت كثيراً!

والواقع أنّه ما إن هدأ توتّره، حتّى سقط رأس دون باولو على وسادته، وكان يلهث من ضيق النفس، كان فمه مفتوحاً، وعيناه مغلقتَين.

كانت اليتيمتان تنظران إليه بخوف ورعب، دون أن تجرؤ أيّ منهما على الاقتراب من سريره، وهما تتساءلان بالإشارة:

-ماذا علينا أن نفعل؟

-ليس عليكما إلّا أن تحضّرا له شيئاً من منقوع حارّ من اللايم والزهورات، ثمّ مَرَقَ دجاجٍ لذيذاً، يحتسيه خلال فترة النقاهة.

دامت النقاهة لفترة قصيرة، على الرغم من توقّعات الطبيب، الذي ظنّ أنّه سيجده ذات يوم مستلقياً في سريره، بانتظار أن يسمح له بالنهوض لساعات قليلة. لكنّه وجده أمام الفرن في المطبخ، بينما كانت جوفانّا تبْشر الجبن المخمّر، وليزا تخفق البيض في الصحن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتقليه، وعمل هو على فرم البقدونس والبصل ليبهّر بهما طبق العجّة اللذيذ...

كان الطبيب قد عاد لتوه من منزل زبونٍ مات قبل دقائق من وصوله، فشعر بالإحراج أمام ذويه وهم يبكون حتّى كادوا يلقون بتبعة الميتة عليه. غرق الطبيب بالضحك بعد أن رأى مريضه دون باولو وهو يعمل طبّاخاً، وشعر باللعاب يسيل في فمه، بسبب روائح الطبخ اللذيذة.

-آه، إنّك تستدعي الطبيب إلى منزلك لتدعوه إلى الغداء.

-إذا أردت أن تتفضّل، أجاب دون باولو مبتسماً.

لكنّه أراد أن يقصيه في الحال، فوضع في يده ورقة من عشر ليرات أجرة زياراته. لم يرغب في أن يكون عليه دين لأيّ كان، وخاصّة للأطبّاء. فمن الأفضل أن يكون الناس بعيدين عنّا قدر المستطاع.

-سيمرّ وقت طويل قبل أن نجتمع مرّة أخرى يا عزيزي الطبيب! قال له عند مغادرته، وكان سعيداً، وكأنّه يحمل في جيبه عقداً مع الله تعالى يخوّله أن يعيش مدّة قرن آخر أو أقلّ بقليل. وهكذا كان.

***

انقضت عشر سنوات. تزوجت ليزا منذ ستة أشهر، كما جرى الكلام عن مفاوضات مع قريبٍ لزوج ليزا، وضع عينه على جوفانّا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بينما أصبح دون باولو مفعماً بالحيويّة، أكثر ممّا كان أيّام نزاعه مع الساحرة بشأن الطفلتين. غير أنّ رأسه لم يكن يخدمه كما كان أيّامها، بل كانت ذاكرته تضعف يوماً بعد يوم. كان يثرثر كثيراً حول الماضي، ويذكر، أكثر ما يذكر، لحظات لها طابعها الخاصّ، أمّا الأحداث القريبة فكانت تزول من ذاكرته حتّى لو حدثت في اليوم نفسه:

-بدأت أخرف يا ابنتَيّ!

بعدها بعدّة شهور، تغيّرت الأمور.

لم يعد يخرج من البيت، وكان يذهب من غرفة إلى أخرى كالضائع، حاجباه معقودان، يداه وراء ظهره، وهو ينظر حوله بلا مبالاة، كأنّه يرى أموراً لا تعجبه.

كان يتذمّر ويغضب بسبب لا شيء، ويكرّر بعض الحركات كلّ يوم في الموعد نفسه، مع أنّه كان يبدي حالاً اعتقادَه بأنّه كان على خطأ.

منذ أسبوع، كان يعمل في ساعة محدّدة، على تحضير مائدة الطعام.

-ماذا تفعل يا جدّي؟

-ألا ترين؟ ألا نأكل اليوم ربّما؟

-لكنّنا أكلنا قبل ساعتين!

-هل أكلنا حقّاً؟... صحيح، معكِ حقّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمّ يلتزم الصمت لبرهة، قبل أن يبدأ بفضّ المائدة.

بعدها بشهر، بدأ يصرّ على قناعاته. كان من غير المجدي إعادة إخباره: لقد أكلنا قبل قليل! فكان يهزّ رأسه بنوع من الخبث، ويواصل تجهيز المائدة. ما إن ينتهي، حتّى يجلس إلى المائدة وينتظر، وهو يقرع بالملعقة أو بالسكّين على طرف الصحن، ثمّ يفقد صبره من التأخير:

-هل تريدون أن أموت من الجوع، أنا العجوز المسكين؟ يا ناكرتَيْ الجميل، لقد أعطيتكما كلّ أغراضي، لقد تعرَّيتُ لأكسوكما... وهذه هي مكافأتي! ملعونتان! الجحيم ينتظركما!

كان يصرخ ويبكي. بينما كانت ليزا وجوفانّا تضحكان أحياناً، وتظهران الدهشة أحياناً أخرى، مكتئبتيْن من مشاهدته وهو يبكي. ثمّ كانتا تحاولان مداعبته، ودفعه بالحسنى لأن يبتعد عن المائدة، وعن ذلك التصميم المريض، ثمّ تشيران عليه بالقول:

-لقد حلّ منتصف الليل، علينا الذهاب إلى السرير.

كانت الشمس تقترب من الغروب وتغزو الغرفة التي كانتا تقودانه إليها، لكنّه لم يكن يلاحظ الأمر. كانت ليزا تغلق النافذة، وكان هو يتعاون معها وهي تنزع عنه ثيابه، ويسأل:

-وتراتيل الصلاة؟

-لقد تلوناها لتوّنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-أجل، أجل، يجب ألّا ننساها أبداً، وإلّا فإنّ العذراء لن تعيننا. اذهبا الآن إلى السرير أنتما أيضاً. إنّه منتصف الليل.

لكنّ هذه الخطّة لم تنجح إلّا لوقت قصير.

فذات ليلة أيقظ كلّ من ليزا وجوفانّا قرعٌ قويّ على الباب.

-أيّتها الكسولتان النائمتان، هيّا، استيقظا. لقد انتصف النهار.

منذ ذلك الحين أصبح منتصفُ الليل منتصفَ النهار بالنسبة إليه.

كانت ليزا تنهض حينئذ وتفتح النافذة:

-ألا ترى أنّه ظلام؟

-إنّه الغيم. إنّه خسوف...

إنّه يتذكّر خسوف الشمس الذي حدث قبل سنوات، ويقول إنّ الشمس ستظهر في الحال. الخلاصة أنّ هناك حاجة لصبر القدّيسين، وكانت ليزا وجوفانّا قدّيستَيْن بالفعل، كانتا تحبّانه، بل تعشقانه، وتشفقان عليه، يا للعجوز المسكين. وكانت ليزا تتشاجر أحياناً مع زوجها، الذي لا يحبّ الخير، كما كانت تنعَتُه:

-وهل هو يدرك ما الذي يفعله؟

ثمّ إنّه بدأ يفقد، من حين لآخر، وعيَه بمعرفة الأشخاص.

-من أنتِ؟ ماذا تفعلين هنا؟ ماذا تريدين؟

-أعرف، أعرف، لكن تلك؟ من هي تلك؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-جوفانّا.

يضطرب عند سماع الاسمين. فيخلط بين ذكرياته عن ابنتيه الميّتتين، وبين هيئة المرأتيْن اللتيْن يراهما أمامه. يشعر بالشكّ. فيدير ظهره، وهو يهزّ برأسه، ثمّ يعاود من جديد، بعد لحظات قليلة:

-مَن أنت؟ ماذا تفعلين هنا. أنا صاحب البيت، هذه أغراضي.

ويبدأ بالحديث ويهذي طويلاً:

-كان عندي ابنتان... كانت تلك الساحرة ترسلهما في طلب الصَّدَقات... وقد ماتتا، المسكينتان، ماتتا بسبب التيفوئيد!... هل تذكُرانهما، لقد كتبتُ وصيّة، تركتُ كلّ شيء لهما... كانتا يتيمتَيْن... هجرَهُما جميع الناس... وقد أخذهما الله... فلتكنْ إرادةُ الله! ما هما اسمَيْكما؟ ليزا؟ جوفانّا؟ هذان اسما ابنتَيَّ أيضاً. إذا قبلتُما بالعيش معي وبخدمتي، الآن وقد هرمتِ، فإنّي سأكتب وصيّةً وأترك كلّ شيء لكما... أنا السيّد هنا. لكنّي لا أريد البقاء هنا، أريد العودة إلى بيتي. خذا المفتاح ولنذهب، هيّا، فلنذهب!

Telegram:@mbooks90

كان لا بدّ من مسايرته، حتّى لا يغضب ولا يصرخ.

كانت ليزا تتصنّع أنّها تضع الشال - بل كان يكفي في كثير من الأحيان وضع فوطة أو منشفة - ثمّ تتقلّد ذراعه حتّى الدرج، ثمّ ينزلان إلى الإسطبل، أو إلى القبو، ثمّ يصعدان من جديد:

-ها قد عدنا إلى بيتنا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-آه، ما أروع العيش هنا! لم أكن أطيق ذلك المكان! لا يمكن للمرء أن يتصرف على هواه في بيت غيره.

تعوّدت الاثنتان على هذه الغرائب، في أغلب الأحيان كانتا تنجحان في التغلّب عليها قبل وقوعها، وكانتا تسايرانه على الدوام، فهذا كان أفضل حلّ لتجنّب المضاعفات، بل كانتا تستمتعان بسماع القصص التي كان يسترسل العجوز في روايتها عن الماضي القديم والسحيق، ممّا يقفز إلى ذهنه جلياً في صورته، ودقيقاً في تفاصيله، بطريقة رائعة.

كانتا تستمتعان أيضاً حتّى عندما كان يغضب منهما، ويقول، إنّهما ناكرتان للجميل، تتركانه جائعاً بلا طعام، وتملّان رؤيته أمامهما، إنّه هو السيّد وهما تريدان كل شيء لهما...

-لكنّي سأعاقبهما! أعرف كيف أنزل عقابي بهما!

-كيف؟

-سأمزّق الوصيّة، سأتركهما عاريتَيْن، على قارعة الطريق!

-نِعمَ ما تفعل - تجيبه ليزا وهي تضحك - عليك أن تترك الأغراض لنا نحن الاثنَتَيْن.

-أنتما الاثنتان؟ وما دخلكما أنتما الاثنتان؟ الأغراض هي لي ولابنتَيَّ، لليتيمتَيْن اللتين ربّيتُهما، وغذّيتهما من لحم قلبي، من دم عروقي! فما دخلكما أنتما الاثنتان؟ لا يحبّني أحدٌ إلّا هما، هما ستصلّيان من أجلي عندما أموت. فما دخلكما أنتما الاثنتيْن؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

استمرّ الأمر لمدّة سنتيْن متتاليتين، دون يوم هدنة واحد.

ثمّ إنّ العجوز أصبح حزيناً. كان يمضي النهار بطوله، وهو جالس على الكرسيّ ويداه على ركبتيه، يرمق من حين لآخر الفتاتيْن بنظرة، أو يهزّ حبلاً ربط به المهد الذي ينام فيه باولينو ابن ليزا، مطيعاً لأوامرها:

-هيّا، هزّ مهد الطفل.

لم يسأل البتّة عن الطفل، وابن من هو، ولا كيف جاء إلى هذا البيت، ولا ما هو اسمه.

لكنّهم ذات يوم، رأوا العجوز المسكين ينهض من على المقعد الذي بقي متسمّراً فوقه طيلة الصباح، وهو يعرك عينيه، ويفرك جبهته، كأنّه يستيقظ من سبات عميق.

-ليزا!... جوفانّا!

كان ينادي عليهما، وهو يبتسم، وبصوت يرتعش من الانفعال، وكأنّه يراهما بعد غياب طويل.

بدا أنّه يذكر كلّ شيء، وبدا أنّه يخجل من الذي يذكره...

-هل كنتُ أنا مجنوناً؟ آه يا ابنتيّ كم جعلتكما تعانيان!... لكنّي سأذهب الآن، ولن أعذّبكما بعد الآن، سأذهب لزيارة ابنتيّ الاثنتين اللتيْن تنتظرانني منذ وقت طويل... باركّكما الله يا يتيمتيّ المسكينتين!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حاول رفع يديه ليباركهما... ثمّ تركهما تسقطان... انطفأ على حين غرّة، بلطف وعذوبة، بين ذراعي ليزا وجوفانّا.

روما، تشرين الثاني/ نوفمبر 1893

---

(1) - «دون» هو لقب يستعمل في إيطاليا للتبجيل. وتعني دراغو بالإيطالية التنّين. لذلك سنسمِّي هذه الشخصية من الآن فصاعداً بمعنى الاسم بالعربية أي التنين.

(2) - يوجد تقليد شعبي في بعض مناطق صِقِلّية بصنع خبز يسمى «Guasteddi» غواستيدّي، وخاصة يوم 11 كانون أول عيد القدّيس مارتينو، ويصنع من عجين الخبز المقلي المخلوط مع السكر والعسل.

(3) - فنجل عينيه فتّحهما ووسَّعهما ليعيَ ما حوله. وفي العامّيّة: فنجر.

(4) - Tarì التاري عملة جزيرة صِقِلّية آنئذٍ وكانت تساوي سنتيماً، أي واحداً في المئة من اللّير الإيطالي.

(5) - جاء في الأصل الإيطالي: «القوانين التركيّة» وهو تعبير إيطاليّ عاميّ ساخر يحمل المعنى الذي أوردته أعلاه بالعاميّة السوريّة.

(6) - Methuselah متوشالح: ابن إدريس ووالد لامك وجدّ نوح، توفّي عن عمر يناهز 969 عاماً، قبل سبعة أيام من بداية الطوفان العظيم (عن ويكيبيديا).

(7) - تنخَّم الرَّجُلُ فهو مُتنخِّم، أي لَفَظ ما في فمه من بلغم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(8) - من أناشيد عيد الميلاد في جزيرة صِقِلّية.

(9) - تسعيّة عيد الميلاد من 16 كانون أول حتّى ليلة الميلاد. وهي تحاكي تسعة أشهر قضاها المسيح في رحم مريم. أناشيدها عبارة عن ابتهالات لقدوم المسيح وكثيراً ما تصاحبها الموسيقى التقليديّة.

(10) - حلوى تقليديّة في صِقِلّية تقدّم خلال الأعياد الدينيّة، تصنع بتحميص الحمّص وبذور القرع المجفّفة.

(11) - مجسّم المغارة il presepe أو il presepio هو مجسّم بأحجام مختلفة يمثّل المغارة أو حظيرة الأغنام وفيها السيّد المسيح طفلاً في المهد وحوله أمّه وملوك المجوس الذين جاؤوا ليقدّموا له الهدايا. وينصب المجسم بمناسبة عيد الميلاد في الكنائس والبيوت والأماكن العامّة احتفالاً بعيد الميلاد.

(12) - لعبة أطفال تجري على طاولة رسم عليها مسار متعرّج أو على شكل دوّامة فيه بين 63 و90 مربّعاً ويحمل كلّ مربّع رقماً أو رمزاً مميّزاً. يرمي اللاعبون نردين ويتقدّمون في المسار وفق إشارات النردين عندما يلقيهما اللاعب. والفائز هو من يصل إلى مربع النهاية قبل غيره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أوّل سيجارة

كان جورجو فتىً طيّباً، لكنّه شديد الغرور، وكان زملاؤه في المدرسة يلقّبونه بـ«الفيلسوف»، لأنّه كان نادراً ما يقبل مشاركتهم في صخبهم وألعابهم. كان يسعى، منذ ردح من الزمن، لأن يبدو فتى في ريعان الفتوّة، على الرغم من أنّه لم يبلغ الأربعة عشر عاماً، وكان يغضب بسبب إصرار أبيه وأمّه على منعه من التخلّي عن قميصه ذي النطاق، وبنطاله القصير.

أجل، إنّه يثير في هذه الحلّة إعجاب الآخرين، بل إنّه كان يسمع بأذنيه بعضهم وهو يكيل له كلمات المديح والإطراء، وهو يمشي برفقة أبيه خلال أيّام العطلة، لكنّ هذا لا يهمّه في شيء.

الأدهى من ذلك أنّه كلّما توسّل إلى أبيه أو أمّه، لكي يسمحا له بارتداء السترة والبنطال الطويل، كما يفعل كثير من زملائه الأصغر منه سنّاً، فإنّ أباه وأمّه كانا يبتسمان ويهزّان برأسيهما، وكأنّهما يسخران منه. هل عليه إذن أن يرتدي هذا الزيّ البغيض حتّى يصبح عجوزاً؟ ولم يكن ليستكين أو يستسلم.

في نهاية الأمر، أجابه أبوه ذات يوم:

-ستكون راضياً إذا نجحتَ بالعلامة التامّة.

-هل هذه كلمة أب؟

- كلمة أب!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان جورجو طالباً مجتهداً، ومع ذلك فقد حقّق المعجزات خلال تلك الشهور الأربعة المتبقّية له في المدرسة، ذلك وصورته وهو بالسترة والبنطال الطويل ماثلةٌ أمام عينيه، هذا هدفٌ لا بدّ من بلوغه، وهو يبرّر أربعة أشهرٍ من الدراسة الدؤوبة المستفيضة. لذلك فقد وضع أمام نفسه مقولةً تعلّمها من كتاب التاريخ الحديث قالها هنريك الرابع: «بلوغ باريس يستحقّ إقامة قدّاس»(13). أمّا بالنسبة إليه فإنّ ارتداء زيّ السترة والبنطال الطويل كان حلماً سعيداً يحلم به منذ سنتين تقريباً، وتحقيقه هو بمنزلة اعتلاء عرش مملكة الفتوّة المرجوّة. عندها لن يكون مجرّد صبيّ جميل بل فتىً رائعاً، وهذا ما كان يحرص كلّ الحرص على أن يسمع الناس يمدحونه به، وهو يسير بصحبة أبيه أو أمّه، بل وعندما يتأبّط حزمة كتبه في طريقه إلى المدرسة ذهاباً، أو إلى البيت عودةً.

لم يسبق له أن شعر أبداً بمثل هذا القلق من الفحص، كما شعر به في هذا العام. كان كلّما اقترب ذلك اليوم الفظيع، فقد ثقته بالنجاح المرغوب، وكلّما رأى أنّه يبتعد، ليضيع بين ضباب السترة المحتضرة والبنطال الطويل، اللذيْن مثلا أمام عينيه طيلة الشهر الأخير، حتّى ظنّ أنّ بوسعه الإمساك بهما بمجرّد أن يمدّ يده.

عندما رآه أبوه قادماً إلى البيت، محمرّ الوجه هائجاً، يتواثب وهو يرمي قبّعته وكتبه في الهواء، ظنّ أنّه قد جنّ وفقد رشده.

-الخيّاط! السترة والبنطال الطويل!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يتمكّن جورجو من قول شيء آخر.

وبما أنّ الأب ابتسم، وطلب منه أن يهدأ، فقد أردف قائلاً:

-قلتُ إنّها كلمة أب!

طفرتْ عيناه بالدموع خوفاً من ألّا يفي أبوه بوعده.

***

كان لجورجو الحقّ في اختيار القماش، وفي أن يطلب من الخيّاط ما شاء، وكأنّه بلغ حقّاً عمر الفتوّة. كان عنيداً عديم الرضا: «ليس هذا القماش، بل ذلك القماش... لكن... ربّما كان هذا أفضل». بدأ الخيّاط يفقد صبرَه، بعد أن رأى تردّده وتغييره الرأي، بين لحظة وأخرى. هنا تدخّل الأب لينهي الحكاية.

لكنّ الخيّاط فقد صبره حقّاً، عندما جاء وقت قياس الثياب. فقد كان جورجو يرى يوماً أنّ كمّي السترة طويلان، بينما يراهما قصيرَيْن في اليوم التالي، ثمّ ربّما كان الصدر مهلهلاً... والبنطال، ويلتاهُ كيف ينسدل على الحذاء! بل ويصفق عند المشي بأصوات مضحكة...

-إنّك زبون فيه مَسٌّ من الشيطان - صاح الخيّاط في وجهه - مَن علّمك هذا؟

في نهاية الأمر ووسط راحة شعر بها الجميع، أصبح الثوب على ما يرام. أراد جورجو أن يقيسه للمرّة الأخيرة: فرأى أنّه على أحسن ما يكون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان قلبه يتحرّق شوقاً للخروج حالاً من البيت، وفي ذات الصباح، ذلك لكي يستمتع بكلمات الإعجاب، لكنّ أباه أراد أن يلجم اندفاعه المفرط، فقال له:

-سنذهب هذه الليلة إلى بيت السيّدة رونزانو، لأنّ اليوم هو عيد ميلادها. في هذه الأثناء عليك الانتهاء من وظيفة اللغة الألمانيّة، فنحن سنعود متأخّرين إلى البيت هذا المساء، ولن يكون لديك وقتٌ غداً، لأن المعلّمة ستأتي في وقت مبكّر.

طلب جورجو رأفة أبيه لكي يستطيع أن يفرش الثوب على سريره، في غرفته. أراد أن يشاهده، بينما يقوم هو بالدراسة، وبتصفّح كتب القواعد والقواميس.

لكن هل من الممكن أن يترجم من الألمانيّة إلى الإيطاليّة، ومن الإيطاليّة إلى الألمانيّة، وذلك الثوب اللمّاع الجديد، ممدّدٌ أمامه على السرير؟ كان جورجو يلتفت بين الحين والآخر، وينهض من وراء طاولته، ليمتّع عينيه بالنظر إليه، وليلمس بأنامله قماشه الإنكليزيّ الطريّ الجميل. وهكذا انقضت الساعة الأولى، وما زالت الترجمة من الألمانيّة متجمّدة، عند سطورها الأولى.

-معي وقتٌ حتّى ساعة الغداء! فكّر في ذات نفسه.

كان يشعر بإغراءات ارتداء الثوب مرّة أخرى، ليجرّبه ويتفحّصه بعناية أمام المرآة، ويتأكّد أنّه لائق بالفعل وعلى قياسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي الواقع فإنّه تذكّر الآن أنّ هناك تجاعيدَ كانت تحت كمّ السترة، لم يلحظها في حينه، وفي الوقت المناسب، وهو يريد الآن التأكّد إن كان هذا وهماً أو حقيقة. كان أبوه خارج البيت، وأمّه مع ضيوفها في الصالون، ولن يزعجه أحد...

تردّد لحظة، ثمّ خضع للإغراء، فبدأ يخلع ثياب البيت بسرعة فائقة.

لا، كلّ شيء على ما يرام، فلا تجاعيد تحت الإبط، ولا شيء غير ذلك!

كان يجوب الغرفة جيئة وذهاباً، ويختال كالطاووس، منتفخاً بهيئة الفتوّة، الطاقيّة على رأسه والعصا في يده.

كان عليه أن يمشي منحني الظهر بعض الشيء، متدلّي اليدين، كأنّه الفارس سغانزيتّي.

هل سيقولون إنّه أنيق بالفعل؟ أو إنّه مثل قريبه المغرور روبيني، عندما يرفع رأسه وينفخ صدره؟

أجل، إنّه يجرّب. وإنّه ليغضب من الشعور بأنّه أخرقُ في حركاته. فالبنطال الطويل يعرقل حرّية الحركة في القدمين. وماذا يعني... إنّه لم يتعوّد بعد!

جرّب وعاد يجرّب، إلى أن بدا له أنّه استعاد الطراوة الضروريّة. عندها...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهب ليختلس السمع وراء باب الصالون. كان لدى أمّه ناسٌ كثيرون. عاد إلى الغرفة، على رؤوس أصابعه، وأغلق الباب بالمفتاح، فإذا جاء أحد سيجيبه إنّه لا يريد أن يزعجه أحد، لأنّه يريد أن ينتهي بسرعة من وظيفته.

في اليوم التالي، وبينما كان جورجو يقلّب في درج خزانة أبيه، وجد فيه سيجارة منسيّة منذ وقت طويل، لأنّ أباه انقطع عن تدخين السجائر منذ ردحٍ من الزمن، وإن أبقى على تدخين السيجار الطويل.

أراد جورجو أن يستكمل وضع الفتوّة، ففكّر أن يدخّن تلك السيجارة، بعد أن يفتح النافذة، كيلا يشعر أحد برائحة التنباك.

انتقل من القول إلى الفعل، فسحب السيجارة من مخبئها، الذي خبّأها فيه، وأشعلها، وبدأ بنفث نفثات كبيرة من الدخان، هنا وهناك، وهو يغلق عينيه، ويتجوّل عبر الغرفة، كما يريد أن يتجوّل عبر الطريق الرئيسة، لو أنّهم سمحوا له بذلك. إنّ سيجارة صغيرة كهذه لن تضرّه على الإطلاق.

نفثات دخان، الواحدة بعد الأخرى، مع قليل من السعال، عندما يدخل الدخان إلى الحلق بسبب قلّة خبرة المدخّن.

لذيذة تلك السيجارة! آه، إنّه لا يرى الساعة التي يصبح فيها كبيراً، لكي يشتري علبة سجائر يابانيّة، كعلبة سغانريتّي، بطيورها المحلّقة. ثمنها عشرون ليرة، في ذلك المحلّ الجميل الواقع في شارع كوندوتّي الأنيق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان قد لمح تسعيرتها عدّة مرّات من خلال الواجهة، عندما كان يمرّ من هناك.

ما إن دخّن نصف السيجارة، حتّى شعر بشيء من الاضطراب، بشيء ما اخترق معدته، ثمّ صعد إلى رأسه، وسبّب له نوعاً من الدوخة الحلوة... إيه، هيّا بنا! إنّه مجرد ولد صغير.

نفثة دخان، واحدة بعد الأخرى، كأنّها تخرج من حلق المدخنة.

***

فقد وعيه على حين غرّة... انثنت ساقاه تحته، فرأى من الأفضل له أن يجلس.

أوه، يا ربّي!

Telegram:@mbooks90

شعر أنّه أصبح طويلاً جدّاً، سميناً جدّاً... رجلاً ضخماً، عملاقاً... إذا جلس على ذلك المقعد فسيحطّمه بثقل وزنه، كيف حدث ونما على تلك الطريقة؟ لقد لامس رأسه السقف... آه، آه! آه! ... ماذا لو دخل أبوه أو أمّه في تلك اللحظة، إنّهما لن يعرفاه... آه، آه!

كان يضحك، وهو يترنّح ويستند إلى قطع الأثاث، هذا بينما كان يشعر أنّه يستطيل ويستطيل ويستطيل، كأنّ شخصاً ما يشدّه من شعره ... إنّه لا يلمس الآن قبّة السقف فقط، بل إنّ عليه أن ينحني أيضاً، لم تعد الغرفة تتّسع له... كاد يختنق! نظر إلى نفسه، فرأى أقداماً وأيدي لا توصف، هل بدأ يصبح وحشاً مخيفاً؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاف وفزع، وبدأ يصرخ:

-النجدة! ساعدوني!

كان جاثماً على الأرض، لكنّ رأسه كان يلامس السقف.

-النجدة! ساعدوني!

سمع قرعاً عنيفاً على الباب، سمع صراخاً:

-افتحْ، افتحْ، ماذا حلّ بك؟ ماذا هناك؟ لكنّه لم يكن قادراً على الحركة، لم يدرك ماذا يحصل. كان يرى حوله أشخاصاً لا يعرفهم، يسمع كلمات لا يفهمها... ولم يعد يدرك شيئاً.

***

ذعرت الأمّ ذعراً عظيماً، بينما ركض أحد الخدم بالجري بحثاً عن سيّده، طار آخر نحو الطبيب في الصيدليّة القريبة.

-ماذا حدث؟ كان هذا سؤال الجميع.

لم يحر جورجو جواباً، كان إمّا أن يضحك بحماقة، أو أن يجيب بعبارات غريبة، غير مفهومة:

-إنّي أستطيل!... جعلوني أستطيل! هيّئوا لي مكاناً!...

عندما وجد الأب عقب السيجارة على الأرض، في غرفة جورجو، تمكّن أخيراً من حلّ اللغز، وفهم الأمر.

-لقد دخّن سيجارة حشيش، قال بعد أن تعرّف على السيجارة،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعرضها على الطبيب.

كانت تلك السيجارة محضّرة من مستخلص القنّب الهندي، الذي يسبّب رؤى وتخيّلات غريبة، ويخدّر من يتعاطاه، وكان قد أهداها له صديق عاد لتوّه من القاهرة، كي يجرّبها. لكنّه لم يرغب في خوض تلك التجربة، وخشي أن تسيء له، فرماها في ذلك الدرج. ومن يدري كيف نقّب الصبيّ، وتمكّن من نبشها.

عندها طمأنه الطبيب، فالاضطراب عرضيّ، وأمر بتقديم القهوة إلى الصبيّ وتوفير الراحة له.

كان من المستحيل الذهاب في تلك الليلة، إلى بيت رونزانو، ذلك وسط استياء كلّ من الأب والأمّ اللذيْن لم يكونا يرغبان في التغيُّب عن حفل صديقة عزيزة عليهما. كان الأبُ والأمّ مضطربيْن من شدّة الرعب الذي أصابهما، عندما كانا يجهلان نوعَ المرض الذي أصابَ ابنهُما. كما بقي جورجو يشعر حتّى اليوم التالي أنّ كثيراً من الذهول ما زال يتملّكه بسبب الحشيش، وأنّ معدته تفور بغثيان شديد.

انتظر الأب، حتّى زالت تماماً آثار ذلك النوع من الثمالة، ثمّ أجرى لجورجو غسيل دماغ من الدرجة الأولى.

-والثوب بالبنطال الطويل... حتّى السنة القادمة! أنهى بهذا تقريعه.

خفض جورجو رأسه، ولم يجرؤ حتّى أن يتنفّس، على الرغم من أنّه لعن في قلبه سجائر الحشيش ومَن اخترعَها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهذا شُفي من مرض السترة والبنطال الطويل، ومن عادة النبش بين أغراض أبيه.

---

(13)- قال الملك هنريك الرابع هذه المقولة الشهيرة عندما تعيّن عليه أن ينقلب من ديانته البروتستانتيّة إلى تلك الكاثوليكيّة وذلك كي يتمكّن من اعتلاء عرش فرنسا. وقد ذهبت المقولة مثلاً يقال لتبرير التضحية بأمر ما من أجل بلوغ هدف كبير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السادة الصغار

-يا للعذراء! ... السادة الصغار!

وقف الراعي، يداه في جيبَيه، وعصاه تحت ذراعه، وقف على المفرق، ينتظر الصِّبْيَة الأربعة الذين كانوا في آخر الطريق، يرمون الحصى على شجرة مشمش، لكي تسقط على الأرض ثمارُها الصغيرة غير النّاضجة. لم يكن من الممكن التعرّف عليهم بسبب الكُتَل التي تُشكّلها أشواك العلّيق، وتجعلها سياجاً يغطّي ذلك الطرف، وكذلك بسبب أغصان شجرة الزيتون الضخمة التي تعلو التلّة.

كما أنّ الصبية الأربعة لم يكونوا يثبتون البتّة، كانوا ينحنون ليلمّوا حصى الرمي، ويتشاجرون حول أخذ الثمار الساقطة، ويدورون من هنا وهناك حول الشجرة، ليصيبوا الأغصان المليئة بالثمار، ذلك كما كان يفهم من حركاتهم. الخلاصة أنّهم يتواثبون عمداً، وعن قصد، كي لا يعرفهم مخلوق.

وقف لخمس دقائق متتالية، وهو يراقب عذاب شجرة المشمش المسكينة، وهي تصاب بوابل الحصى، فتسقط من أغصانها سُعفٌ كبيرة وسُحبٌ من الأوراق. وعندما فقد صبره، صاح فيهم بنبرة تهديد: «هوه! هوه!» توقّف الصبية، ونظروا باتّجاه الصوت، وعندما عرفوا صاحبه، أجابوه بصيحة فرح وابتهاج:

-راعي! راعي غنم!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل واندفعوا وهم يجرون نحوه. عندها عرفهم هو أيضاً، انطلقت منه صرخة الدهشة: «يا للعذراء!... إنّهم السادة الصغار!» - ولم يكن في صرخته هذه أيّ مديح لأولئك الصبية.

والواقع أنّه كلّما جاء إلى المزرعة أولاد صاحبها الصغار، كان من الممكن القول إنّ أربعة شياطين غير مصفَّدين قد وصلوا.

كانت هذه الحالة تتكرّر في شهر أيّار من كلّ عام، كلّ يوم سبت بعد الغداء. كانوا يصلون من البلدة المجاورة، مشياً على الأقدام، في عهدة فلّاح لا يرغب في الجري كما يجرون، فيتركهم في منتصف الطريق لينصرفوا. كانت المزرعة تنقلب عندها، دونما هدنة، رأساً على عقب، في ذلك الردح من النهار، وخلال يوم الأحد التالي. فالدجاج والديكة الروميّة طليقة، يتعقّبونها عبر حقول القمح، والحمير تحرن، بعد أن يسلكوا فيها حزمَ الأشواك تحت الأذناب، والعجول تُضْطَهدُ بحزم القصب أو العصي، حتّى يهرب راعيها من الحظيرة، أمّا المحاريث فتسحب في أنحاء المكان، وتُقلب العربات في الفجاج، وتزرع المعاول والشوك في كلّ مكان، وفقاً لمزاج الساعة وأهواء الآن. هذا إذا لم أتطرّق إلى نهب كروم الحصرم، وأشجار التفّاح، والخوخ، الذي لم ينضج بعد، وأشجار المشمش والكرز، ولا إلى تسلّق سقوف البيت بحثاً عن أعشاش الطيور. أمّا كيف لا ينالُ أولئك الشياطين سوءٌ، ولا تُكسَرُ عظامُ رقابهم، ولا تَرفسُهم دابّة، فتلك معجزة، وأيّة معجزة. لكنّ الأوامر أعطيت للفلّاحين كيما يتركوهم وشأنهم، فكانوا يتركونهم على مضض، وهم يتذمّرون همساً، خاصّة أنّه سيكون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من واجبهم إعادة الأغراض المبعثرة إلى مواضعها، وترتيب المكان، بعد إزالة آثار ذلك النوع من السلب والنهب.

لذلك فإنّ الراعي عندما عرف أنّهم كانوا هم، صاح:

-يا للعذراء!... إنّهم السادة الصغار!

كان قد وصل إلى المزرعة منذ أسبوع فقط، مع أغنامه لترعى على تلال ووديان زغومبو، وكان يتذكّر بخوف شديد ما تعيّن عليه أن يتحمّله، خلال شهر أيّار من السنة الماضية.

رآهم بعد دقائق، يندفعون وسط الأغنام التي كانت ترعى بهدوء، ثمّ تفرّقت خائفة، بعد أن أطلق الصبية الأربعة صيحات المرح، وهم يجرون وراءها من هنا وهناك، ليمسكوها من جلودها وقرونها وأذنابها.

Telegram:@mbooks90

-ها كم القريشة، صاح الراعي، ليمنعهم من المتابعة.

-رفع ذراعه وعرض عليهم سلّة القريشة.

-أحسنت أيّها الراعي! القريشة! القريشة!

هجموا عليه، وكان كلّ منهم يدفع الآخرين، ويلكمهم ليكون أوّل من ينتزع السلّة من يده، وكانوا يصرخون ويتضاحكون، حتّى أنّ قلب الراعي رقّ بسبب ذلك الشجار الطفوليّ المرح، فابتسم وخفض ذراعه، وأعطى سلّة القريشة لكبيرهم وقال:

-خذها إلى المزرعة، لا يوجد هنا صُحون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما انصرفوا عنه بسرعة، تنهّد كما يتنهّد من تخلّص من حِملٍ على ظهره. ذهبوا، يتقدّمهم كبيرهم، وهو يرفع السلّة عالياً، وكأنّه يرفع كأس النصر. وجرى الآخرون خلفه، وهم يهتفون، ويثيرون سحب غبار أكثف من تلك التي يثيرها قطيعُ الغنم عندما يعبر طريقاً ترابيّة.

***

في ذلك العام أكنّ الأسيادُ الصغار محبّةً خاصّة للراعي وأغنامه.

كان نباح الكلب ينبئ بقدومهم، في الصباح، وهو يستعدّ للحلابة. وكانوا يجيئون، وهم يحملون أطباقهم وملاعقهم وقطعاً من الخبز الطازج، ليأكلوا أنواع الجبن والقريش الطازجة الحارّة، أو وبكلّ بساطة طبقاً من الخبز المغموس بالحليب.

ولم يكن في الأمر أيّ سوء، لو أنّهم يبقون هادئين. لكنّهم كانوا يعملون على وضع أيديهم في كلّ مكان، كالقيام بحلب الأغنام بأيديهم، أو تحريك الحليب وهو يغلي، أو إشعال النار على أمل مساعدة الراعي، لكنّهم كانوا يربكونه خلال أعماله الدقيقة النهائيّة. وكان على المسكين أن يراقبهم بمئة عين، وأن يستعمل مئة يد، ليمنع أولئك الأولاد المباركين من قلب الغلّاية أو سطول الحليب.

كلب الحراسة كان يبدو متضايقاً أيضاً من ضجيجهم المزعج، فكان يهمهم، وهو رابض أمام الكوخ، ليمنعهم من دخوله. كان يبدو، وكأنّه أدرك أنّ أولئك الصبية يخافون من ذلك الحيوان القذر، الأشعث المقيت، أي منه هو.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان على الصبية أن يقضوا في المزرعة الأسبوع بكامله، وليس يوماً ونصف يوم، كما جرت العادة. كان هناك عطلة ما، أراد الأب أن يبقى خلالها مطمئنّاً في البيت، لذلك فقد أرسلهم إلى المزرعة.

أمّا إعادتهم كلّ صباح إلى المزرعة، بعد التهام الأجبان أو القريش أو ثريد الحليب، فكان بالفعل عملاً مضنياً.

-نريد أن نبقى معك، وأن نجري خلف الأغنام!

كان الراعي يُفلح، في نهاية الأمر، في إقناعهم، وذلك بأن يعِدهم بجلب زهور البستان معه عندما يعود، أو أعشاش العصافير، أو عيدان طويلة جدّاً، أو بأن يقصّ عليهم خرافات جميلة، فهذا وحده الذي كان يقنع السادة الصغار أن يتركوه بسلام.

أرادوا ذات يوم أن ينتظروه داخل الكوخ، كي يوفّروا على أنفسهم عناء الذهاب مرّتين بين المزرعة والحظيرة.

-لا، أبداً لا دخول إلى الكوخ.

-لماذا؟

-لأنّه لا. لا يمكن لأحد أن يدخل إلى الكوخ.

بدا أنّ الصبية اقتنعوا بهذا النهي القاطع.

لكن ما إن قدّروا أنّ الراعي، أصبح مع الأغنام في وادي سغومبو، قفلوا راجعين من تحت شجرة الخروب، حيث توقّفوا في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منتصف الطريق. وبقفزتين أصبحوا أمام الكوخ.

كانوا قد حاكوا مؤامرة، فقد عرفوا أنّ الراعي يضع هناك القريشة التي سيحملها في المساء إلى المزرعة، فقرّروا التهام تلك القريشة، لإغاظته. وبالفعل، فقد أكلوها.

***

صرخ الراعي المسكين في وجه فلّاحي المزرعة، فقد شكّ في أنّ مدبّر السرقة هو واحد منهم. لم يحدث له، طيلة حياته، أن تجرّأ مخلوقٌ على سرقة نقطة حليب منه، لكنّه بدأ منذ يومين يفتقد سلّة قريشة كلّ يوم.

-إذا رأيته، فإنّي سأحطّم رأسه، حتّى لو كان ابن أبي!

حرص الصِّبْيَة، الذين حضروا المشادّة، على التزام الصمت، لأنّهم خافوا نوعاً ما من ذلك التهديد. لكنّهم، ما إن ذهب الراعي، حتّى بدؤوا، وبالخفاء عن الفلّاحين كي لا يكتشفوا أمرهم، بالقفز والضحك والتصفيق، احتفالاً بالإنجاز الذي حقّقوه.

لكنّهم، لم يضحكوا في اليوم الثالث. عادوا بهدوء تامّ إلى المزرعة مُتْخَمين بالقريشة الطازجة المسروقة، رأوا أنّ عليهم أن يتوقّفوا... فتوقّفوا تحت شجرة الخرّوب نفسها.

نظر بعضهم في وجه بعض، فرأوا أنّ وجوهَهم بيضاء، شاحبة مثل خروق مغسولة، ولم يتجرّؤوا على النبس ببنت شفة، بسبب آلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بطونهم.

كان الصغير هو السبّاق، ثمّ قلّده الثلاثة الآخرون، واحداً تلو الآخر. كأنّهم لم يأكلوا القريشة، بل ابتلعوا دواءً قويّاً يسبّب التقيُّؤ. بكى الصغير وهو يستنجد: «ماما! ماما!»، أمّا الكبير فحاول أن يتصنّع الشجاعة، لكنّه لم يتمكّن من الوقوف على قدميه. بدأ أربعتهم بالبكاء والصراخ ومناداة المُزارع.

أسرع رجلٌ كان في المزرعة القريبة، ففزع لرؤيتهم على تلك الحال. جرّ اثنين من رقبتهما، وقادهما إلى المزرعة، ثمّ عاد وجرّ الاثنين الآخرين من تحت شجرة الخرُّوب.

لم تعرف نساء المزارعين أيَّ علاج يقدِّمْنَ لهم، فحاولن إرسال شخص إلى البلدة ليخبر السيّد.

-يا الله، ماذا أكلتم؟ حصرم؟ فاكهة غير ناضجة؟

-أكلنا القريشة!

اعترفُوا كلّهم بذلك، أربعتُهم.

لكنّ أحداً لم يصدِّقهم، خاصّة وأنّهم كانوا يتلوّون من آلام البطن، وفكّروا أنّه لا يمكن للراعي أن يكون قد قدّم لهم القريشة بكميات كبيرة قادرة على أن تسبّب مثل هذه الاضطرابات.

كان الفلّاحون يرون في الراعي نوعاً من الطبيب مرّة، ومن الساحر مرّة أخرى، لهذا فقد استدعوه: «تعال بسرعة، اترك الأغنام وتعال».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قالوا إنّه هو وحده القادر على أن ينصح، في الحال، بعلاج ما ألمّ بحال أولئك الصبية المساكين.

وصل وهو يلهث، وما إن رآهم حتّى ضرب جبهته بيده:

-يا إلهي، هم إذن من سرقوا القريشة من عندي!

كان يريد أن يتأكّد أنّ السارق كان واحداً من فلّاحي المزرعة، كما كان يظنّ، لذلك فقد خلط الحليب، في ذلك الصباح، بخلاصة بعض الأعشاب التي يعرفها، والتي لا تسبّب ضرراً كبيراً، لكنّها تؤدّي إلى التقيّؤ وأوجاع في البطن.

-إنّه لا شيء - قال - يكفي شيءٌ من الماء الساخن، مع قطرات من عصير الليمون.

تألّم المسكين، لأنّ القيء كان من نصيب الصبية بالذات، لكنّه بقي يكرّر وهو مندهش، ولا يصدّق الذي حصل:

- كانوا هم الذين سرقوا لي القريشة.

***

كان الدرس مفيداً. ففي الأيّام التالية ترك الصبيةُ الراعي وأغنامه، في سلام واطمئنان، ولم يرغبوا حتّى بسماع كلمة القريشة.

قَلَّ أيضاً صخبُهم، وتناقصت نزواتهم. ومن حينِها، عندما كانوا يجيئون إلى المزرعة، ويرغبون في تجاوز الحدود نوعاً ما، كان يكفي أن يقول لهم المزارع: «إيه، أيّها السادة الصغار، يلزمنا شيء من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القريشة!»، عندها كان الأربعة يتراجعون ويلتزمون الهدوء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللجنة

كلّما اجتمعت اللجنة في دار الكوماندانتور(14) سكالاندري، كان الأطفال يُنقَلون إلى الغرفة الكبيرة، في آخر الممرّ، وكان هذا يعدّ عيداً بالنسبة لهم.

أمّا ما هي هذه اللجنة، فهذا ما لم يعرفوه أبداً.

كانوا يرونهم في بعض أيّام الأسبوع، وهم يَصِلون فُرادى، أو مَثاني أو في عشرات، سادةً كباراً في السنّ، يعتمرون قبّعات عالية، ويحيّون بعضهم بعضاً بتحيّات وقورة، ويسمّون بعضهم فارساً، أو كوماندانتوراً، أو حتّى صاحب سيادة، وصاحب سعادة. بعد شيء من تبادل الأفكار، في الصالون مع السيّدة سكالاندري، والسيّدة مارغاريتا، الأخت الكبرى، كانوا يتوجّهون لينفردوا بالأب، في غرفة أعدّت خصّيصاً للمشاحنة، كما يقول الأطفال، الذين كانوا يسمعون من غرفتهم البعيدة، الصَّخَبَ المضطرب الصادر عن مناقشاتهم المستفيضة، وحامية الوطيس.

كان أحدُهُم، في كثير من الأحيان، يسأل مرّة، والآخر يسأل مرّة أخرى، الأبَ والأمَّ والعمّةَ... لماذا يجتمع أولئك السادة أعضاء اللجنة، في تلك الغرفة؟ وماذا تعني كلمة لجنة؟ لكنّ الأبَ والأمّ والعمّة كانوا يجيبون على الدوام:

-ستعرفون هذا عندما تكبرون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذا فقد اتّخذت كلمة لجنة معنى غامضاً في ذهن أولئك الأطفال. وكان هذا الغموض يثير فضولهم ويحرّك خيالهم.

كانوا يسترقون السمع وراء باب الغرفة، بل إنّهم تدافعوا ذات مرّة وتصادموا لكي يستمعوا بصورة أفضل، فكان أن فوجئوا، وأكثر من مرّة، بأنّ الباب ينفتح على مصراعيه، لأنّه لم يكن مغلقاً بإحكام، وهكذا فإنّ واحداً، أو اثنين منهم، أو أكثر يتدحرجون على الأرض، فيزعجون أولئك السادة، وهم في زبدة النقاش. لذلك وتجنّباً لأيّ طيش قد يحدث خلال جلسات اللجنة، صارت الأمُّ تغلق بالمفتاح بابَ غرفةِ نهاية الممرّ، ذلك بعد أن توصي الأولاد بألّا يحدثوا ضجيجاً ولا صخباً، لا هم ولا غيرهم من أصدقائهم الأطفال، عندما يزورونهم.

وبالفعل فقد جاء ذات يوم إلى بيت سكالاندري ثلاثة شياطين غير مصفَّدين، من أطفال عائلة كولوتشي. وبما أنّ ذلك كان يوم اجتماع اللجنة، فقد قالت لهم السيّدة سكالاندري عند ساعة معيّنة:

-هيّا يا أطفال تعالوا معي.

ثمّ قادتهم إلى الغرفة المعهودة.

-العبوا هنا، دون إحداث كثير من الضجيج.

بعد هذه التوصية أغلقت السيّدة الباب بالمفتاح.

-لماذا أغلقت أمّك الباب بالمفتاح؟ - وجّه الكبير بين أولاد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كولوتشي سؤاله إلى ليلّو كبير أولاد سكالاندري.

-لأنّ اللجنة عندنا.

-وما هي هذه اللجنة؟

-إنّهم سادةٌ لا يريدون أن يسمعهم أحدٌ وهم يتناقشون، لأنّهم يتنازعون بصورة دائمة. وماذا يهمّنا نحن من أمرهم؟ فلنلعب.

-لا، لا أريد أن يُغلق البابُ دونيَ، أريد أن أخرج!

عبس آلدو كولوتشي في الحال، وذهب نحو الباب يدفعه بقدميه، ليحاول فتحه.

نظر إليه بقيّة الأطفال باستياء وخوف.

-هل أنت خائف؟ سأله ليلّلو.

Telegram:@mbooks90

-أيّ خوف! لكنّي لا أحبّ الجلوس في السجن.

-أمّا نحن فنتسلّى بهذا جدّاً! لأنّنا نفعل، ساعتها، كلّ ما يحلو لنا أن نفعله. علينا أن نبقى هنا ما دامت اللجنة عندنا.

أخذ آلدو يتجوّل في الغرفة، وهو يعضّ على شفتيه مضطرباً، ثمّ توقّف عند الأبواب الأخرى متسائلاً:

-إلى أين يؤدّي هذا الباب؟

-إلى صالون العمّة مارغريتا.

-وهذا الباب؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-إلى غرفة الخادمة كريستينا.

-ومن غرفة كريستينا إلى أين؟

-إلى غرفتنا حيث ننام أنا وكارلو، ألا تعلم؟

-فلنخلعْ هذا الباب - قال آلدو بنبرة حزم.

رأى أولاد سكالاندري أنّ في هذا العرض أمراً جللاً - لا، أبداً، ماذا ستقول ماما؟ صاحوا في جوقة مجتمعين.

-أمّا لي، فلن تقول شيئاً، لأنّي لستُ ابنها.

كان صوته يرتجف من شدّة غيظه، كما طفرت عيناه بالدموع. ثمّ بدا أنّه يستجمع أنفاسه ليدبّر حيلة جديدة. ثمّ انهال فجأة على الباب، فانفتح نصف فتحة، مع شيء من الصرير، لكنّه انفتح على مصراعيه بعد الضربة الثانية.

-إلى أين أنت ذاهب؟

-سأخرج، تعالوا أنتم أيضاً! قال لإخوته الصغار بنبرةٍ متغطرسة.

رأى أنّ أحداً لم يتحرّك، فهزّ كتفَيه وخرج وحدَه.

-سيسبّب آلدو لنا كثيراً من التوبيخ! قال كارلو.

-آلدو! آلدو! ناداه همساً أحد الإخوة الصغار بعدما رأى حركته المؤسفة.

تجمّعوا كلّهم على عتبة الباب المفتوح وبدؤوا ينظرون، بين خجل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفضول، وهم يأملون أن يروا آلدو جاثماً في إحدى الزوايا، ليدبّر لهم مكيدة ما. لكنّهم عندما نظروا من خلال الباب الثاني، الذي بقي نصف مفتوح، وجدوا أنّه قد تجاوز هذا الباب. بدأ ليلّو يضرب بقدميه، وكأنّه هو الذي عصى أوامر أمّه. لكن ها هو أحد الأطفال في الخلف، يدفعه دفعة خفيفة، فإذا هو داخل الغرفة، وها هم جميع الآخرين يلحقون به. شعر ليلّو بإغراء، حمله على التقدّم خطوتين أو ثلاث خطوات، ليتمكّن من التجسس من خلال الباب المشقوق. دقائق، ولن يعرف أحدٌ منهم أن يفسّر كيف وصلوا إلى الغرفة الأخرى. لقد أغراهم مثال آلدو الجريء، وأثار فيهم الحماسة، واشتعل الفضول في قلوبهم جميعاً، لأنّهم يريدون أن يعرفوا الآن كيف تسنّى له أن ينجح في محاولته، بما أنّ الخروج يعني أنّه مرّ بكلّ تأكيد عبر الغرفة التي تجتمع فيها اللجنة.

بعد دقائق قليلة، تشاور أيضاً أولاد سكالاندري فيما بينهم بالنظرات والإشارات، وتوقّفوا عن التفكير بأوامر ماما. ثمّ ها هم، بعد ابتسامة توافق، يتّبعون خطوات آلدو، ويسيرون وراءه على رؤوس أصابع أقدامهم، فيعبرون الغرفة تلو الأخرى، ممسكين أيدي بعضهم بعضاً، كما لو أنّهم ينفّذون عمليّة هروب.

كانوا يسمعون كلّما اقتربوا من المجتمعين صخب النقاش، وهو يتعالى بين أولئك السادة هناك. فكانت تتميز في آذانهم، على الرغم من حالة الفوضى، مختلف الأصوات: فهي بين أجشّ، وحادّ، وغاضب، وساخر مستهزئ. لكنّها كانت تشكّل بعضها مع بعض ضجيجاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مضطرباً، ترافقه أحياناً ضربات من قبضات اليد على الطاولة، ورنين متتابع من الجرس، مع صيحات: أيّها السادة! لكن، أيّها السادة!

-هذا هو صوت أبي! قال ليلّو بعد أن توقّف وكأنّ أباه قد صرخ في وجهه هو بالذات.

لا يفصل بين غرفة اللجنة والغرفة التي كان الأطفال يتواجدون آنئذٍ فيها سوى صالونٌ واحد، فكان يمكن من الباب المفتوح رؤية آلدو، وهو يقف على أصابع قدمَيه، مستنداً بيديه إلى الباب، وهو يختلس النَّظر من شقّ قفل الباب.

اقتحموا الغرفة، كأنّ قوّةً شديدة تجذبهم إليها، فبدا دخولهم إلى غرفة اللجنة، كأنّه إشارة أعطيت في الوقت المناسب، لتأذن بتصاعد صخبٍ غير مسبوق، يتخلّله دويُّ أصوات مختلفة، وجرس يرنّ، وكراسي تزاح فتقرقع، وخطوات أقدام تضرب الأرض، وأبواب تُصفَق. الخلاصة أنّه كان ضجيج أشخاص يهربون، وكأنّهم يتعقّبون بعضهم بعضاً، على الرغم من نداءات الكوماندانتور سكالاندري، وهو يحاول منعهم من الخروج، صارخاً بصوته الأجشّ: «أيّها السادة! لكن، أيّها السادة!».

حلّ بعد ذلك صمتٌ مطبق. وقف الأطفال في مكانهم مرعوبين، وخاصّة أطفال سكالاندري، كان الخوف مرسوماً على وجوههم خشية أن يقع مكروه لأبيهم.

لم ينتبه آلدو إلى وجودهم هناك، وعندما التفت فجأة ورآهم هتف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قائلاً:

-ما أسخف أولئك السادة، لقد غادروا وهم يتشاجرون، لم يبقَ إلّا القليل حتّى يبدؤوا عراكاً بالأيدي.

لم ينبس أحدٌ ببنت شفة. فالصمت الذي أعقب الشغب أصاب الجميع بالذهول. لكنّ آلدو اكتشف وقد راق مزاجه، مائدةً مركونة في إحدى الزوايا، ففنجل عينيه، وهو يشير إليها بإصبعه.

كانت هناك أطباق مليئة بأنواع المعجّنات، مصفوفة على تلك المائدة، فضلاً عن صحون البسكويت والحلوى، وزجاجات خمر المارسالا، وزجاجات مختومة فيها نبيذ زهريّ، وصِينيّاتٌ عليها أنواع السجائر ولفافات السيجار.

اقترب الجميع وقد غمرتهم الدهشة، ولم يكن حتّى أطفال سكالاندري يعلمون شيئاً عن تلك المائدة العامرة بكثير من لذائذ الطعام وأطايب الشراب، فكانوا ينظرون ويتعجّبون، واللعاب يسيل في أفواههم، لكنّ أحداً منهم لم يجرؤ على مدّ يده.

غير أنّ آلدو، ذلك الشيطان الصغير، لم يكن يكتفي بأنصاف الحلول.

-لقد بقي هذا كلّه لنا، بعد أن ذهب أولئك السادة!

قال ما قال، ثمّ تناول فطيرة بالشوكولاته فقضمها وسرعان ما أردف:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-لذيذة!

تردّد البقيّة للحظات، ثمّ حذوا بغتةً حذوه، منهالين على أصناف الأطباق، وهم يخنقون الضحك الذي أثاره ذلك الوضع الغريب، ويأكلون بل يتسابقون في التهام الفطائر والحلوى، ويتواثبون من شدّة البهجة، ويخنقون، بالفطائر تلو الفطائر، صيحات الفرح في حلوقهم، والتي كان لا بدّ أن تنطلق من أعماق قلوبهم المفعمة بالسعادة، من كثرة المأكولات اللذيذة. كانوا يتدافعون على مختلف الأطباق، ويتصادمون، ويتنازعون هذه أو تلك الحلوى، هذه أو تلك المعجّنات، وكأنّ الله قد بعث لهم كلّ هذه الأطايب، لتكون لهم وحدهم.

ثمّ إنّ آلدو الذي كان وجهه مشرقاً من الفرح بنجاح عمله، أمسك زجاجة مارسالا من عنقها، وملأ بكلّ وقار سبع كؤوس بعدد الموجودين، ثمّ رفع كأسه قائلاً:

-في صحّة اللجنة!

ثمّ كَرَعَ منها برشفة واحدة، وهو يكشرّ غامزاً بعينيه.

شرب الجميع دون أن يلقوا بالاً لما يفعلونه، بل إنّهم ثملوا مقدّماً بسبب المغامرة، ولم يتذكّروا أباً ولا أمّاً ولا عمّة، وشجّعهم على ذلك الصمت المطبق، الذي أحاط بهم والذي أظهر كأنّ البيت مهجور، وكأنّ الأب والأمّ والعمّة والخدم، قد جروا كلّهم ليمسكوا بأعضاء اللجنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شربوا ثمّ شربوا، قبل أن يعودوا إلى غزو المعجّنات والحلوى. لم يعد بوسعهم الآن أن يتوقّفوا، فجاء بعد المارسالا، دور النبيذ الورديّ. كانت وجوه الجميع مشتعلة، وعيونهم برّاقة، يتكلّمون بصوت مرتفع، ويضحكون بصخب. ثمّ تناول آلدو صينيّة السجائر، وبدأ يقدّم منها للجميع حوله، ويقول:

-هلّا تدخّنون؟

تناول لنفسه سيجاراً وأشعله، ثمّ قدّم النار للآخرين، الذين بدؤوا يسعلون بعد عَبَّتَين أو ثلاث عَبَّات من الدخان.

أشار بعدها بإشارة توحي بالتزام الصمت، واقترب من الباب، أدار مقبضه ودفع مصراعه إلى الخلف وصاح:

-أيّها السادة أعضاء اللجنة، تفضّلوا، تفضّلوا!

اندفع الأولاد حول الطاولة، وتحلّقوا حولها محدثين كثيراً من الصخب، وهم يتنازعون الجرس، وينثرون الأوراق، ويلوّحون بالأقلام، ويصرخون، ويُوَقْوِقُون، كما سمعوهم يُوَقْوِقُون، بينما صرخ آلدو: «لكن، أيّها السادة! أيّها السادة! ذلك وهو يقرع الجرس كالمهووسين».

بدوا مهووسين بالفعل، في أعين السيّدة سكالاندري والعمّة والكوماندانتور، الذين أسرعوا عند سماع هذا الصياح.

-يا أولاد، يا أولاد! ما هذا؟ اصمتوا، اخرسوا!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلى! اصمتوا واخرسوا! كانت الأوراق تتطاير في الهواء، ودواة الحبر مقلوبة على السجّاد، والجرس خلعت يده، فسقط على الأرض.

فَضَحَت بقعُ القشدة والنبيذ الورديّ الظاهرة على ملابس الجميع، كلّ ما حدث، ففهمت السيّدة سكالاندري الواقعة، وذهبت لتتحقق من الأمر. عادت في الحال وهي تضحك من الفزع الذي أصابها، أمام المشهد المؤلم، وما ستسبّبه للأطفال تلك العربدة بالمعجّنات والمارسالا والنبيذ الورديّ والسجائر.

-لقد شربوا المارسالا، إنّهم سكارى! التهموا المعجّنات والحلوى! إلهي أيّة تخمة! بل إنّهم دخّنوا أيضاً.

Telegram:@mbooks90

لكنّ الكوماندانتور، الذي ما زال يستشيط غضباً من مشهد أعضاء اللجنة، وكان يريد أن يشبع الأولاد ضرباً، فإنّه انفجر في ضحكٍ وقهقة عالية، وهو يقول:

- كلّ هذا على شاكلة اللِّجان! ملعونٌ من اخترعها!

لكنّ الأطفال دفعوا غالياً ثمن عقوقهم، فقد توجّب عليهم أن يبقوا ثمانية أيّام طريحي الفراش، وبدل الحلوى والمارسالا كان عليهم أن يبتلعوا أدوية مقرفة.

(14) - لقب من ألقاب الفروسيّة، أعلى من لقب فارس أو فارس رسميّ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هواء! حركة!

كانوا يخافون في بيت بورسينو، أشدّ ما يخافون، أن يلتهم الهواء ذَيْنِ الطفلين اللذين طال انتظارهما، وجاءا متأخّرَيْن. كانوا يخافون أيضاً من البرد، ومن الحرّ، والخلاصة أنّي لا أعرف مِن أيّ شيء كانوا لا يخافون.

لهذا فإنّ أنجولينا وألفريدو تربّيا مثل الورود في الأُصُص، وبقيا شاحبَيْن، كسيرَيْن، حذِرَيْن ونحولَيْن بشكل لا يظهران فيه أنّهما طفلان، بل مجرّد امرأة صغيرة ورجل صغير، فلقد بقيا صغيرَيْن بسحر ساحر.

كانوا يجدّدون الهواء لهما، بعناية شديدة، كلّ ربع ساعة، لكنّهم عندما يفتحون نوافذ الغرفة، كانوا يرسلون الصغيرين إلى الغرفة المجاورة. أمّا إذا ترك خادم أو خادمة الباب مشقوقاً، بما قد يعود ببعض الضرر، فإنّ صاحب البيت والسيّدة يغضبان أشدّ الغضب، ويسيئان إلى الخدم، وكأنّهم يحاولون تهديد حياة ولديْهما، علماً أنّ الزوج والزوجة لا يعاملان عادةً القائمِين على الخدمة إلّا بكلّ طِيبة.

كان على الدكتور كارلاني أن يأتي للمعاينة، مرّتين أو ثلاث مرّات كلّ أسبوع، ليراقب صحّة ذَيْنِ المخلوقيْن المسكينَيْن، عسى ألّا يكون هناك مرض خفيّ، أو أيّ سوءٍ يمكن إيقافُه في مراحله الأولى، أو ألّا يكون هناك شيء آخر يمكن اتّقاء ضرره.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-لكنّكما تسيئان إليهما بهذه الطريقة! إنّهما بحاجة إلى الهواء الطَّلق، الهواء الطلق والحركة! لكنّ نصائح الطبيب كانت تذهب عبثاً في عبث.

-هذا لأنّه ليس لديك أولاد! بهذا كان الزوج والزوجة يجيبان الطبيبَ سويّة.

ولم يبقَ إلّا القليل حتّى يشكّ الاثنان أنّ الطبيب يقدّم تلك النصائح لكي يحلّ بالفعل مرضٌ بالطفلَيْن يتمكّن لاحقاً من معالجته، وبهذا تبدو خدماته أجلَّ وأثمن.

أمّا نزهةٌ مع الطفلين - بالعربة، طبعاً - فكانت دائماً موضع نقاش يدوم لساعات طويلة. إذ كان الزوج يعاين، أولاً، ميزان الحرارة الموضوع خصّيصاً خارج النافذة، ليتأكّد من درجة حرارة الجوّ. بينما كانت السيّدة تستطلع السماء والغيوم وتصرّفات المارّة، لأنّها لا تثق كثيراً ببيانات ميزان الحرارة. عندما يكون القرار إيجابيّاً، يجب أن نرى كيف يتمّ تكويم الملابس فوق الولدين، حتّى لا يصيبهما أثر سوء من احتكاكهما بالهواء الخارجيّ!

-لكنّكما تسيئان إليهما بهذه الطريقة!

لكنّ نصائح الطبيب كانت تذهب عبثاً في عبث.

-آه، أنت ليس لديك أولاد، كان هذا جواب الزوج والزوجة الذي لا يتغيّر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان السيّد بورسينو قد جمع مكتبة صغيرة، قوامها كتب طبّيّة تعنى بشؤون حديثي الولادة، وكان يتدارسها في الصباح والمساء. كما كان يدرس بعناية الصفحات الأربع من كلّ جريدة، بل كان يُبلِع الأولاد، وفي خفية عن الطبيب، مقوّيات إعجازيّة، وفق رأي مخترعيها والأطبّاء المشهورين بالدَّجَل، ممّن يركبون الموجة، وهم على قناعة بأنّ تلك المقوّيات، إذا لم تقوِ شيئاً، فإنّها لن تضرّ بشيءٍ البتّة.

لكنّه ما إن بلغ الطفلان سبعة أو ثمانية أعوام، حتّى أصابهما أمرٌ غريب، أي أنّهما طفقا يتدهوران بسرعة فائقة، حتّى بدا أنّهما يشيخان بدل أن ينموا ويكبرا.

عزا الأب والأمّ ذلك التدهور إلى الدراسة، إلى الدروس التي كانت تعطيها لهما في البيت مُدرّستان، ثلاث مرّات في الأسبوع. لذلك فقد تمّ تقليص عدد الدروس قبل أن يتمّ إلغاؤها كلّيّةً. والواقع أنّه جرت في ذلك الوقت أحاديث عن أوبئة مثل الحصبة والخنّاق والحصبة الألمانيّة التي كانت تَزرع في المدينة مجازر كبيرة. خاف الأب والأمّ أن تحمل المدرّسات عدوى مميتة، لأيّ من تلك الأمراض، تنقلها من البيوت الأخرى التي يدرّسن فيها.

جرت بعدها مضاعفة الاحتياطات: فالهواء يجدَّد بعدد أقلّ من المرّات، والمقوّيات الموقّرة المعتادة تعطى بعددٍ أكبر، لكنَّ هذا كلّه لم ينفع في شيء أبداً.

شعر الطبيب بتأنيب الضمير، فكلّمهما ذات يوم بشيء من القسوة:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-إمّا أن تغيّرا هذا النمط من الحياة، أو تَقرأا على الطفلَين السلام.

شعر الأب والأمّ بالفَزَع، فانهالا على يد الطبيب، وتوسّلا إليه، والدموع تطفر من عيونهما:

-مُرْنا رَجاءً، وسنُطيعك!

فأمرَهُما بما يلي:

-أرسلاهما إلى جدَّتِهما في الريف!

-إلى جدّتِهما؟

وكأنّهما يعنيان:

-إلى تلك العجوز المجنونة؟

والحقيقة أنّ قطيعةً حدثتْ بين الأمّ وابنها بسبب الأطفال بالذات، فأقسمت الجدّة أنّها لن تزور بيته أبداً، ما دام يصرّ على سجنهما في المستشفى، لأنّ بيت ابنها لا يبدو لها بيتاً بل مجرّد مستشفى، هي المعتادة على الهواء الطَّلْق في الريف.

-بل وفيه نَتَنُ المشافي! أردَفت، وهي تخرجُ من بيته آخر مرّة، ولم تَعُدْ إليه ثانيةً.

نظرَ الزوج والزوجة في عيون بعضهما بعضاً، عندما أجاب الطبيب مُصِرّاً على أقواله، مؤكّدا عليها:

-إلى الجدّة! إلى الجدّة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طلبا منه ألف عَفوٍ، وقدّما له كلّ آيات التبجيل والاحترام، وعرضا عليه دون أن ينتبها إلى اختلاف حديثهما، باستدعاء مجلسٍ من ثلاثة أطبّاء آخرين للتشاور، وليس طبيباً واحداً فقط.

-بل مئة إذا شئتما! وافقِ الدكتور كارلاني وهو يضحك.

ثمّ، وكأنّ هذا حدث عن عمد، فإنّ السيّدة مرضت مرضاً خطيراً. فكان لا بدّ من إرسال الطِّفلين إلى الريف، برفقة الدكتور كارلاني، الذي عرض بنفسه هذه الخدمة.

***

لكنّ أنجولينا وألفريدو أصبحا أسوأ من والديهما، أي أشدّ خوفاً منهما من الهواء، والضوء، والحرّ، والبرد. سبّب هذا يأساً لدى الجدّة تزايد خلال الأسابيع التالية، وهي التي قَبِلَتْ بهما قربها، شرط أن يعيشا بالطريقة التي تراها مناسبة.

لكنّه كان عليها أن تطردَهُما من البيت، لتُجبِرَهما على الذهاب إلى الحقول، أو اللّعب تحتَ الأشجار. إذْ كانوا دائماً يجيبونها:

-أبي لا يريد هذا، أمّي لا تريدُ ذاك.

-أبوكُما وأمُّكُما شخصان سخيفان! كانت تجيبُ العجوز. هيّا اخرُجا من هنا، اخرُجا!

ثمّ حدثَ أنْ أُصيبا بنزلةِ بردٍ شديدة، فيها سعالٌ وحرارة وإلى غير ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-رائع! قالت الجدّة.

ظنّ الطفلان أنّهما وقعا بين يديّ طاغية.

لم يتمكّنِ السيّد بورسينو من الذهاب لزيارتهما، لكنّه كان يكتب لهما رسالةً كلّ يوم.

ما إن دخلت زوجته في مرحلة النقاهة، حتّى ذهب، ذات صباح، إلى الفيلّا من دون أيّ سابق إنذار، فتَغَشَّاه الذهولُ، حتّى ظنّت أمّه أنّ مصيبة قد أصابته.

-زوجتك؟

-إنّها أحسن. أين الأطفال؟

-في الخارج.

-حتّى هذه الساعة؟

-إنّهما في الخارج، منذ ساعتين.

-أين؟

-في الحقول.

-والندى؟

-سيبلّل أقدامَهُما، هذا كلّ ما في الأمر!

قام السيّد بورسينو بحركة تدلُّ على تأسِّيه، ثمّ هرب ليبحث عن أولاده. وهو لا يدري في أيّة حال سيجدُهما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم يصدّق عينيه. لقد انقضى شهر واحد فقط، لكنّه وجد أنّ الشمس قد لوّحت بشرتهما، وأنهما سَمِنا وزاد طولهما ثلاث بوصات، وإن كانا يرتديان ثياباً مخيفة، وكانت أيديهما ملوّثة بالطين، وأحذيتهما مبلّلة موحلة، فلم يصدّق ما رآه، خاصّة وأنّ الوقت ما زال بحدود الساعة الثامنة صباحاً!

اقترب منهما بحذر وبطء، بعد أن اكتشف مكانهما بعيداً بين العشب. وماذا رأى؟ رأى أنجولينا تعتمر قبّعة من القشّ الخشن، وألفريدو يعتمر الطاقيَّة، وهما منحنيان ومنهمكان، في تعبئة الوحل داخل وعاء الحليب. وكانت الطفلة تستعمل ملعقة خشبيّة، أمّا الطفل فكان يستعمل يديه بالذات. وأين؟ أين بالضبط؟ في مكان مغمور بالماء. لقد انغمست أقدامهما في مستنقع المياه، وسط الأقصاب الصغيرة. انصدم وتوقّف. وبصعوبة أطلق صوته ليناديهما، فأرعبهما بمنظره وبذراعيه المشرَّعتين وعينيه المفنجِلَتَين.

لم يجرؤ الطفلان على الاقتراب منه، وخشيا من توبيخه، بل وأشدّ من ذلك. لكنّهما اطمئنّا حالما شاهدا طرف منديل أحمر، يبرز خلف أبيهما، كان ذلك منديلَ الجدّة الذي تضعه على رأسها. عندها اندفعا نحوَه، لكنّ الجدّة تلقّتهما بذراعَيها:

-لا توسّخا ثيابه!

شعر السيّد بورسينو بالخزي، ولم يصدّق ما يراه من ذلك الواقع الذي يفضح أخطاءه، بل إنّ وجهه احمرّ خجلاً، عندما وقفت أنجولينا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لتسأله بشيء من الوقاحة:

-هل جئت يا أبي لتأخذنا؟

انهال الأب عليها يقبّلها ويداعبها. ما أصلب عضلاتها وذراعيها! وما أجمل تلك الحمرة تحت بشرتها التي لوّحتها الشمس!

-لن تتمكّن ماريّا من التعرّف إليها. تمتم في قرارة نفسه.

ومع ذلك فقد عزم بعد قليل على تقديم نصائحه للجدّة، بممارسة الاعتدال والاحترام معهما. كانت تحتضن حفيديها بين ذراعيها بحنان ومحبّة، فسدّت فمَه وأجابته:

-بيتي ليس مشفاك! إنّهما الآن طِفلاي، وأفعل بهما ما أشاء أنا! ولن أعيدَهما لك الآن حتّى لو أتيت بالشرطة!

انفعلَ السيّد بورسينو، ولم يعرف بماذا يجيب سوى أنّه كرّر:

-لن تتمكّن ماريّا من التعرّف إليهما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخوف

عبثاً كان الأب يقول لمازينو:

-يجب ألّا تخاف من شيء!

لأنّ مازينو كان يخاف من كلّ شيء، خاصّة، عندما يجد نفسه وحيداً، في غرفة دخل إليها، وهو يظنّ أنّ فيها أحداً ما. عندما يجد نفسه وحيداً وحيداً، يبدأ ودون أيّ سبب بالصراخ، وبضرب الأرض بقدميه، وبتغطية عينيه بقبضتي يديه، وهو يرتعش كأوراق الشجر:

-لماذا تصرخ يا أحمق؟ ماذا حدث.

-لا شيء، يجيب وهو يتباكى، كنت وحيداً! خفت كالعادة!

-لكن من ماذا؟ مَن يستطيع أن يسيء هنا إليك؟ الكراسي، أم المقاعد، أم الطاولات: مَن؟ تكلّم!

-بدا لي...

-ماذا؟

لم يبدُ له شيءٌ البتّة، لكنّه اعتاد ذلك الوضع، وملأ رأسه بخيالات عن أخطار مجهولة، يخاف منها ما إن يرى أنّه لا يوجد أحد يمكن أن يحميه، فكان يرتجف ويصرخ.

أمّا تزينا، أخته التي تصغره بسنين عدّة، فكانت شجاعة، مقدامة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنسبة لعمرها، وكانت تسخر من مازينو، وتلقبّه بِرِجْلِ الكُرسيّ، ذلك كما كان يدعوه أبوه. وعندما كان يسيء مازينو إليها كانت تهدِّده قائلة:

-احذر! وإلّا أرعبتك!

وكانت ترعِبُه في الحال، وكان مازينو يصاب بالرعب حتّى لو تمّ تحذيره قبل حين.

لكنّه بدأ منذ وقت قصير يشعر بالخجل من هذا الضعف، ومن هذا النقص حتّى أمام طفلة أصغر منه بأربع سنوات، لكنّه لم ينجح في التخلّص من انطباعاته الأولى. وذهبت عبثاً كلّ جهود أبيه التي بذلها، لكي يقنعه بمقدار الأذى الذي يسبّبه جبنٌ لا يليق به كفتى وكرجل، كما كان يُطرِيه أبوه ليقوّمه.

Telegram:@mbooks90

-يجب ألّا يخاف الرجل من شيء، حتّى لو كان أمام خطر مُحدِق. لأنّ الخوف يعكّر النفس، ويمنع المرء من التفكير. فماذا تفعل إذا خفت عندما يجري كلب وراءك ليعضّك؟ هل تغمض عينيك، وتبقى واقفاً في مكانك، حتّى ينهال الكلب عليك ويعضّك؟ إذا لم تضطرب بسبب الخوف، فإنّك ستفكّر بطريقة تتجنّبه بها وتدافع عن نفسك، حينها لن يعضّك. هل تفهم؟ إذا كانت تلك الغرفة مظلمة ويجب عبورها، وأنت متأكّد أنّه لا يوجد أحد في داخلها، وأنّ الأثاث والهواء لن يسبّبوا لك أذيّة، فِمَّ تخاف إذن فيها؟

-لا أخاف شيئاً، لكنّي... أخاف! اعترفَ مازينو بكلّ براءة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فكّر الأب حينها بمداواة الأمر عن طريق إخافته عمداً، وليبيّن له فيما بعد الأشياء التي أثارت رعبه.

كانوا آنئذ في مصيفٍ في الريف. فأخذه أبوه من يده في المساء، وقاده عبر الحقول. شعر الأب أنّ مازينو كان يشدّ على يده، ويقوم بحركات تسمح له الاقتراب منه، والالتصاق بثيابه، أكثر فأكثر كلّما زادت حلكة الظلام.

على ضوء القمر، كانت جذوع الأشجار والصخور تتّخذ أشكالاً غريبة.

-انظر إلى هناك، ألا ترى أنّ ذلك الجذع يبدو حيواناً؟ فلنقترب منه. أين هو ذلك الحيوان، الوحش؟ لقد خِفْتُ منه، على الرغم من أنّي أقفُ بجانبك. وأيُّ أذىً يمكن لجذوع الأشجار أنْ تسبِّبَه لك؟

التزم مازينو الصمت. لقد خاف بالفعل من شَبَهِ الحيوان، كان كأنّه وحشٌ رابضٌ في الممرّ، وكان من الصعب عليه أن يقتنع أنّ الشكل الذي رآه من بعيد، هو الشكل نفسه الذي يراه الآن عن قُرْب.

واصل أبوه قيادتَه، وسط سكون الحقول.

-انظرْ هناك.

عرف أنّ ابنَهُ خائفٌ، بعد أن شعر برعشة يده.

فعلى بُعدِ خطواتٍ منهُما، بدا أنّ هناك شخصاً رابضاً في وضع تهديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظهر وجهه، عيناه، أنفه، ثيابه، بياض قميصه... لكنّه لم يكن إلّا صخرة بدت على شكل شخص، واتّخذت ملامح إنسان، بفعل ألاعيب الضوء والظلّ التي يسبّبها ضوء القمر.

فَنْجَلَ مازينو عينَيه، لكنّه تابع سيره بشيء من الحذر، والأب يجبره على الاقتراب.

-هل فهمت الآن؟ إنّها مجرّد صخرة. هل ترى ما هو الأنف؟ هذا النتوء الصغير. وهذه هي العينان، مجرّد ثقبين تحت الظلّ. لو كنتَ وحيداً لكنت صرخت، بل وهربت. من ماذا؟ من حجر خامل! ما أروع موقفك آنئذٍ!

التزَمَ مازينو الصمت، وقد أدهشه أنّ تلك الصخرة، قد أخذت عن بعد مظهرَ شخصٍ رابضٍ ومتخفٍّ، كأنّها شخص عن حقّ وحقيقة.

جعله أبوه يكرّر التجربة.

-هل ترى؟ إنّك تعلم الآن أنّ تلك هي الصخرة التي رأيتها عن قرب، ومع ذلك فهي تعود لتبدو من هنا على شكل رجل بأنفٍ وعينين وكلّ ما تبقّى... لكن ألا ترى أنّها هي الصخرة عينها؟

ثمّ روى له كيف أنّه عندما كان فتى، كان يخدع هو الآخر بألاعيب النور والظلال.

ذات مرّة كان واقفاً أمام كنيسة صغيرة، ينتظر صديقاً صعد ليسلّم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسالةً إلى بيت قريب. كان القمر بدراً يسطع بنوره الرائع، وكان ظلّ الكنيسة ينعكس على الساحة ويغطّي نصفها، بينما كانت البيوت في الطرف المقابلِ مغمورةً بالضياء، وكأنّ الوقت نهار. كان لإحدى تلك البيوت درج خارجيٌّ. بينما كان ينتظر صديقه، رأى امرأةً واقفة على الدرج، وقد وضعت قَدَمَها عليه لتصعد، وكانت تحمل على رأسها كومةَ غسيل تسندها بيدها. تأخّر الصديق، لكنّ المرأة لم تتحرّك وبقيت جامدة، تنظر إليه، كأنّها مسحورةٌ من شدّة الفضول. في النهاية تضايق من إصرارها على النظرِ نحوه، فوجّه كلامه إليها وسألها: «إلى ماذا تنظرين؟»، لكنّ المرأة لم تجب، ولم تتحرّك. فكرّر قوله: «أسألكِ إلى ماذا تنظرين؟»، اذهبي لشأنك. لكنّ المرأة لم تُجِبْ، ولم تتحرّكْ. اغتاظ عندها واقترب منها وهدّدها بالضرب... كان ذلك هو جدارَ وحسب! عليه خليط غريب من الأحجار والطُّوب والجصّ المقشور، فكان يعطي، من مسافة معيّنة، انطباعاً بوجود شكل على هيئة تلك المرأة. كان أمراً مذهلاً. ولم تؤثّر الخدعة في عينيه هو فقط، لأنّه عندما رجع صديقه أشار إلى الجدار وقال له: «انظر!»، فرأى الآخر المرأة نفسها على الجدار المغمور بضوء القمر. وبقيا في المكان لأكثر من نصف ساعة، وهما يقتربان ويبتعدان، تملؤهما الدهشة من أنّ خليطَ حجارة ذات ألوان مختلفة، قوامها طوب وجصّ مقشور، قادرٌ على الإيحاء بذلك المشهد الفنّي الرائع. وإنْ هُما لَمْ يقتربا، لبقيا على وهمِهِما بأنّهما شاهدا امرأةً جذَبَها الفضول، فوقفت على الدرج لتَنْظُر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد مضيّ شهر من نزهاتٍ بهذه الطريقة، شعر مازينو أنّه اهتزّ واقتنَعَ بأنّه غبيٌّ أحمق. لكن... بقيت هناك «لكن» كبيرة. فالخوف عاد إليه في تجربة لم يكن أبوه فيها إلى جانبه. وعلى الرغم من أنّه فكّر بالأمر، إلّا أنّ الخوف ساورَه من جديد.

حدث بعدها أمرٌ خارق، كشف النتائج الخطيرة للخوف غير المنطقيّ، وساعده على أن ينتصر كلّ الانتصار على ذلك الضعف في نفسه.

وهذا ما حدث.

فذاتَ ليلة من ليالي شهر تشرين الأوّل، كانت العائلةُ مجتمعةً في الصالون. كانت الأمُّ تشتغلُ بالسنّارة، والأبُ يقرأ الصحيفة. وكان مازينو وتزينا يتسلّيان بمشاهدةِ لوحاتِ دورِهْ(15) عن دون كيشوت، والتي اشتراها الأبّ ذاك الصباح.

على حين غرّة قال الأب لمازينو:

-افتحْ نافذةَ الشرفة، فالحرّ شديد هنا.

فأسرع مازينو لفتح النافذة، وأطلّ منها ليراقب الطريق.

صيحة فزع! أطلقها الفتى وهو يندفع إلى داخل الغرفة، مضطرباً، شاحب الوجه كالأموات. ولم يكن من السهل استخلاص كلمة من فمه. ثمّ بدأ يتمتم:

-وحش! ... عملاق!... ظَهَرَ واختفى!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-أيّ وحش وأيّ عملاق؟ يا أحمق، تعالَ لنرى!

قاوم مازينو هذه المرّة، وكان صراخه يتكرّر ويعلو. فأراد الأب أن يطلّ هو أوّلاً ليرى ما الأمر.

ولم يبق إلّا القليل حتّى يتملّكه الفزع هو أيضاً.

فقد انتصب بالقرب منه ظلٌّ رماديٌّ كبيرٌ، بل عملاقٌ. لكنّ الأب أدرك الأمر في الحال.

كان الضباب كثيفاً، فكان الضوء الموضوع على الطاولة، يعكس ظلّ الشخص على الضباب بعد أن يكبّره ويضخّمه. وهكذا فإن ذلك الظلّ بدا كأنّه عملاقٌ منتصب.

ضحك الأب ونادى تزينا وزوجته، لكي يشاهدا هذه الظاهرة العجيبة. تسلّت تزينا بالأمر، وبدأت تصفّق، ثمّ بدأت تقوم بحركات برأسها وبذراعيها لكي تراها معكوسة على الضباب، ثمّ نادت مازينو.

-تعال وشاهدْ، كم هو جميل!

استسلم مازينو وترك أباه يقوده نحو الشرفة، ذلك بعد أن فهم أصل تلك الرؤية العملاقة، وبدأ بعدها يتسلّى هو أيضاً، بتحريك رأسه وذراعيه.

غير أنّ الخوف كان قد آتى ثمراته المُرَّة. ذلك أنّ مازينو وقع فريسة مرض خطير. لكنّه ما إن أبلّ من مرضه، حتّى شفي أيضاً من مشاعر الجبن التي تحمله على الخوف. وعندما كانت تحين الفرصة كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكرّر بدوره أمام زملائه:

-يجب ألّا نخاف من شيء.

النهاية

---

(15)-Paul Doré (1832-1883) فنّان فرنسي اشتهر بالرسم وأعمال النحت ونحت الخشب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نبذة عن سيرة المترجم

المترجم نبيل رضا المهايني خلال إحدى ندوات الصندوق الدولي للتنمية الزراعيّة في دمشق عام 2012

-من مواليد دمشق 1944.

-أقام في إيطاليا للدراسة، ثمّ العمل، بين عامي 1963 و1986.

-تخرّج عام 1968 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديميّة الفنون الجميلة في مدينة فلورنسة.

-ثمّ تخرّج عام 1971 باختصاص علوم الرأي العام - إخراج تلفزيون وسينما، من جامعة الدراسات الاجتماعيّة في روما.

-عمل، قبلها وبعدها، في مجالات التلفزيون والسينما في روما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-ومراسلاً لكثير من المجلات الأدبيّة والعامّة العربيّة، من فلورنسة وروما.

-ترجم وقتها، وفيما بعد، عدّة كتب عن الإيطاليّة. وقد نُشِرَ كثيرٌ منها في بيروت ودمشق.

-أخرج كثيراً من الأفلام التلفزيونيّة، في مختلف المجالات الوثائقيّة والإرشاد الزراعيّ، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دوليّة وعربيّة.

-يعمل منذ عام 1983 خبيراً لدى الصندوق الدوليّ للتنمية الزراعيّة - إيفاد، في روما بداية، ثمّ في دمشق.

-يعمل الآن كممثّل ميدانيّ لإيفاد في سورية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتب صدرت للمترجم

1.الهروب إلى مصر، غراتسيا ديليدّا

2.سراب، أنطونيو تابوكّي

3.إيزابيل، أنطونيو تابوكّي

4.أرز لبنان وقصص من سردينيا، غراتسيا ديليدّا

5.بينوكيو، كارلو كولّودي

6.حبّ في سردينيا، ميلينا آغوس

7.من هو الله؟ كتاب إلكتروني بالعربيّة والإنكليزيّة والإيطاليّة والفرنسيّة

8.أسماء الله الحسنى. كتاب إلكتروني بالعربيّة والإنكليزيّة والإيطاليّة والفرنسيّة

9.مختارات من الأدب الإيطاليّ الكلاسيكيّ، تأليف وترجمة

10.مختارات من الأدب الإيطاليّ الحديث، تأليف وترجمة

11.أمريكان الضيعة، لويجي كابوانا

12.المؤرّخون العرب للحروب الصليبيّة، فرانشيسكو غابرييلي

13.قلب، إدموندو دي آميشيس

14.شيزارِه بافيسِه، حياته وشعره وأعماله - تأليف وترجمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

15.صاحبة النزل، مسرحية، كارلو غولدوني

16.السياق، ليوناردو شاشّا

ط 2 جثث فخمة، ليوناردو شاشّا

17.الصحارى العربيّة، نصوص وتصوير

18.المسرح الإرشاديّ في سوريّة

19.إيفاد في سوريّة

20.أنا وهو، ألبرتو مورافيا

21.الثورة المتواصلة، (بالاشتراك مع الياس مرقص) إنريكا بيشيل

قيد الإعداد والنشر

-كان يا ما كان، لويجي كابوانا

-التنين، لويجي كابوانا

-الأم، غراتسيا دياليدّا

-مختصر تفسير السعدي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تم الرفع بواسطة: Akko :)

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner